تهذيب الأخلاق

تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

قرأه وعلق عليه

أبو حذيفة

إبراهيم بن محمد

دار الصحابة للتراث





تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

قرأه وعلق عليه

أبو حذيفة

إبراهيم بن محمد



للنشر والتحقيق والتوزيع

ت: ٢٢١٥٨٧ - ص. ب: ٤٧٧

كتاب قد حوى دررا بعين الحسن ملحوظة
لهذا قلت تنبيها

الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

دار الصحابة للتراث بطنطا
للنشر والتحقيق والتوزيع
شارع المديرية - امام محطة بنزين التعاون
ت : ٣٣١٥٨٧ - ص . ب : ٤٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، إنه من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

قال تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقو الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ « آل عمران : ١٠٢ » .

وقال تعالى ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدةٍ وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾ « النساء : ١ » .

وقال تعالى ﴿ **يا أيها الذين امنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يُصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً** ﴾ « الأحزاب : ٧٠ » .

الجاحظ

لم نجد مانزين به مقدمة رسالتنا إلا ماكتبه علامه عصره / عبد السلام هارون رحمه الله . فقد قال عن بيان الجاحظ :

وبعد فالجاحظ إمامٌ فذٌّ من أئمة البيان في العربية ، وليس من الإسراف والمغالاة أن نعدَّه زعيم البيان العربيّ ، نطلق القول في ذلك إطلاقاً .

هو زعيمٌ للبيان العربّي في قوته وأسره ، وفي دقّته وصحته ، وحلاوته وجماله وفّنه .

كان الجاحظ زعياً للبيان العربيّ ، وهو كذلك أحد زعماء المكتبة العربيّة ، التي كانت في الصدر المقدَّم من مكتبات الدنيا ، فيا أسدتْ للإنسانية والفكر العربيّ واللسان العربي من خير ، ومابسطته على ظلام المدنيات المتهافته من نور .

عصر الجاحظ

كان الجاحظ في العصر الذهبي للأمة العربية : عصر هارون والمأمون والعلومُ والآدابُ والفنون يومئذٍ تزخر بها معاهد البصرة وبغداد والكوفة وقرطبة ، وسائر عواصم الإسلام ، وكان المعين فياضاً مُترعاً ، والعقولُ في نشاط وفَوره والتأليف والترجمةُ لها دوي النحل في كلّ صَقع . الدّينَ يدعو إلى العلم والنُّور ، والمالُ تلمع وجوهه في عيون أهل الفضل ، فيُذكي العزائمَ ، وتُبرِم العَقْد .

والعلم ولود ، وصاحبُه كلَّما ارتوي منه عادَ به في سبيل الظّمأ ، وحيثُما شبع منه رجع به في سبيل الجوع .

« منحى الجاحظ في التأليف »

صنع الجاحظ هذه الكتبَ جميعاً . ولم يكن همُّه هم غيره من المؤلفين ، في الجمع والرِّواية والحفظ ، وإنما كان وُكدُه أن يبتكرَ وأن يُطرف ، وأن يخلُق للناس بديعاً ، يمسح على جميعها بالدُّعابة والهزْل ، ويُشيع الفكاهة في أثناء الكلام .

فجمع بذلك قلوب القارئين إليه . واستولى منهم بذلك على شتَّى ميولهم إلى مايكتب ، فصَبَوا إليه وأغرموا به غرماً ! .

وطرق الجاحظُ في كتابته أبواباً عجيبة ، وتقرب إلى العامة ، وحرص أشد الحرْص على استرضائهم ، ولم ينس في ذلك أن يستميل إعجاب الخاصة في المعارف العالية ، والسياسات الرفيعة . أ.هـ .

حياته ومولده :

هو أحد أعلام الكتابة والتأليف في العصر العباسي الثاني ، ورأس المدرسة النثرية الثانية اسمه عمرو بن بحر بن محبوب ، وكنيته أبو عثمان ، ولقبه الجاحظ .

ولد بالبصرة حوالي سنة ١٦٠ هـ - ٧٧٥ م .

ولعه بالدرس :

أولع بالعلم منذ صغره ، فذهب إلى الكتاتيب ، ولكنه لم يستطع أن يتفرغ للعلم بسبب فقره ، فكان يكتري دكاكين الوراقين « أصحاب المكتبات » في الليل ليطالع مافيها من كتب ، ويعمل في النهار لتحصيل قوت يومه . وكثيراً ما كان حب الدرس والمطالعة يستبد به فيقعد عن العمل منصرفاً إلى الكتب .

حضوره حلقات العلم .

أتيح للجاحظ بسبب نشأته في البصرة ، أن يختلف إلى حلقات المساجد حيث كان يجتمع الأدباء واللغويون والرواة وأصحاب الكلام للبحث في القضايا التي جد فيها الجدل ، فألم بثقافة عصره ، ولم يترك مجرى من مجاري الحياة العقلية فيه إلا أقبل عليه إقبال شغف متلهف حتى كاد يستنفد علوم العرب والعجم .

مخالطته الناس :

وكان إلى جانب ذلك كثير الاختلاط بالناس يعاشر صغارهم وكبارهم وفقراءهم وأغنياءهم وكل طبقة منهم ، فأفاده ذلك خبرة واسعة وتجارب نادرة ، وكان يختلف إلى المربد سوق البصرة ويتلقى اللغة والأدب عن الأعراب مشافهة فغزرت لذلك ألفاظه وقويت لغته .

ثقافته :

أودع الجاحظ خزائن الأدب العربي مجموعة من المؤلفات البارزة ، وقد تنوعت بين العلم والأدب والاجتماع ، وتناولت بالبحث أمور الدين والطبيعة والعوالم والمخلوقات حية كانت أو جامدة ، وكتب في الأخلاق والعادات والطبائع والأجناس ، فكان له حشد وفير من الكتب . فمن هذا النتاج الضخم ، وتنوع موضوعاته نستطيع أن نكون فكرة وافية عن هذا الأديب وعطائه ، وأن نتعرف خصائص أدبه وخطوطه العامة ، وأن نتبين عمق ثقافة الجاحظ وسعة معلوماته ، وإنه لمن المدهش حقاً أن يعي هذا الرجل في عقله مجمل ماوصل إليه فكر العرب والعجم آنذاك وأن يلم بمختلف فروع المعرفة ، من أدب وفلسفة وتاريخ ، إلى علوم طبيعية ورياضية وكياوية ، إلى الأديان ومتفرعاتها ، والمجتمعات وأحوالها ، والبلدان وأقاليمها وخصائصها ، حتى لكأن الجاحظ بثقافته الموسوعية ، دائرة معارف حية ، تضم إلى محتوياتها كل ماتقع عليه من حقائق الكون والناس والحياة .

ولعل ذلك يعود إلى عوامل أهمها : طول عمره وصبره الدائب على تحصيل

العلوم ، ونبوغه ومواهبه الجمة ، وبيئته التي وفرت له العلم والمعلمين .

أما نبوغ الجاحظ ، فظاهر في ذكائه ومقدرته على الاستيعاب ، وفي قوة ذاكرته وكثرة فضوله العلمي ، وفي دقه ملاحظته وسعة نظره إلى الفوراق ، كما هو ظاهر في قوة خياله ، وسلامة منطقه ، وقدرته على المحاجة والإقناع وتوليد الأفكار .

وقد تمثل الجاحظ ثقافات متنوعة كثيرة ، ومزج بينهما مزجاً غريباً ، ومهرها بطوابع من شخصيته ثم أخرجها في كتبه حية موحدة الروح ، ملونة بألوان من فكاهته وظرفه ، وحسن اختياره للموضوعات المناسبة . فإذا أنت قرأت كتبه ، خيل إليك أنك في معرض من المعرفة ، حوى خلاصة مااجتمع في عصر المأمون ، وهكذا كانت كتب الجاحظ غنية ، مليئة بما يمكن أن يستفيد المطالع منه ، إلى متعة قلما توافرت لكاتب في عصره .

هذه الرسالة

قام بنشر هذه الرسالة من قبل الأستاذ / محمد كدر علي رئيس المجمع العلمي العربي في سنه ١٣٤٢ ـ ١٩٢٤ بدمشق .

وقد قدم لهذه الرسالة فقال : قد أسعدني الحظ مؤخراً بالعثور في جملة المخطوطات التي دخلت خزانة المجمع العلمي العربي في دمشق على مجموع لطيف من قطع الربع فيه عدة رسائل منها « كتاب تهذيب الأخلاق » للجاحظ وهو الذي أغتبط اليوم بنشره .

أما عن صحت نسبة هذه الرسالة للجاحظ فقد قال « كارل بروكمان » ما ملخصه فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » [٣ / ١٢٨] انه قد قام بنشرها « محمد كرد على » بدمشق ، وهى بحسب مضمونها وأسلوبها ليست من تصنيف الجاحظ والظاهر أنها « لعدى بن يحيى ، والذى نُشر الكتاب بأسمه قبل ذلك فى القاهرة ، كما نُشر أيضاً باسم محيى الدين بن عربى انظر مجلة المجمع العلمى العربى ٤ : ٣٤٦ أ . هـ » .

ولقد كتب كتاب تهذيب الأخلاق بخط جميل وجاء في آخره « وكان الفراغ من تنميقه ، بحمد الله تعالى وتوفيقه ، على يد العبد الضعيف ، فقير رحمة ربه ، وأسير وصمة ذنبه ، يوسف معتوق الخواجا تاج الدين البعلبكي غفر الله ذنوبه ، وستر عيوبه ، وشفاه من ذُنوبه العيوب ، وسقاه من ذَنُوب الغيوب، بمنه ويمنه، وحلمه وكرمه، في أواخر جمادى الآخرة من شهور سنة ١٠٤٧ ».

والرسالة قليل تحريفها تغلب عليها الصحة وفي كل صفحة منها ١٤ سطراً وفي كل سطر نحو ١٠ كلمات .

خلت جريدة كتب الجاحظ من رسالة اسمها تهذيب الأخلاق بل جاء فيها كتابان بهذا المعنى الأول (أخلاق الملوك) والثاني (كتاب السلطان وأخلاق أهله) وكلا الاسمين ينطبقان على موضوع كتابنا أكثر من انطباقهما على كتاب التاج الذي نشره صديقي أحمد زكي باشا ، ولابد أن ينظر الباحثون من العلماء في تحقيق اسم كتاب تهذيب الأخلاق تحقيقاً مشفوعاً باستقراء النصوص لابالاستنتاج فقط وأن يبينوا عين الصواب في تسمية كتاب التاج الذي خلت كتب مؤلفنا من سفر له بهذا العنوان .

وحري بكتاب تهذيب الأخلاق بما فيه من الكلم الطيب أن يتصفحة بل يتدارسه العالم والمعلم والمتعلم ، فقد حوى من ضروب التعليم والإرشاد، مالا يستغني عنه أرباب العلم أ . هـ .

☆ ولما كان من النادر توفير مثل هذه الرسالة على القاريء حيث أن طبعتها الأولى قد طبعت منذ عام ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م وفي دمشق .

رأينا أن نعيد نشرها وإخراجها من جديد وكان عملنا فيها :

إبراز موضوعاتها بإضافة عناوين جديدة .

أبو حذيفة إبراهيم بن محمد



تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ



للنشر والتحقيق والتوزيع

ت : ٣٣١٥٨٧ - ص . ب : ٤٧٧

كتاب تهذيب الأخلاق

للعلاّمة الجاحظ تغمده الله برحمته

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

اعلم إن الإنسان ، من بين سائر الحيوان ، ذو فكر وتمييز ، وهو أبداً يحب من الأمور أفضلها ، ومن المراتب أشرفها ، ومن المُقْتَنيات أنفسها ، إذا لم يعدِل عن التمييز في اختياره ، ولم يغلبه هواه في اتباع أغراضه .

وأولى ماختاره الإنسان لنفسه ، ولم يقف دون بلوغ غايته ولم يرضَ بالتقصير عن نهاية تمامه وكماله ، ومن تمام الإنسان وكماله ، أن يكون مرتاضاً بمكارم الأخلاق ومحاسنها ، ومنزهاً عن مساويها ومقابحها ، آخذاً في جميع أحواله مابين الفضائل ، عادلاً في كل أفعاله عن طرق الرذائل .

وإذا كان ذلك كذلك ، كان واجباً على الإنسان أن يجعل قصده اكتساب كل شيمة سليمة من المعايب ، ويصرف همته إلى اقتناء كل خِيم [١] كريم خالص من الشوائب ، وأن يبذل جهده في اجتناب كل خصلةٍ مكروهة رديئة ، ويستفرغ وسعه في اطراح كل خلة مذمومة دنيئة ، حتى يحوز الكمال بتهذيب خلائقه ، ويكتسيَ حلل الجمال بدماثة شمائلة ، ويباهي بحقٍ أهل السؤدد والفخر ، ويلحق بالذرى من درجات النباهة والمجد .

إلا أن المبتدىء بطلب هذه المرتبة ، والراغب في بلوع هذه المنزلة ، ربما خفيت عليه الخلال المستحسنة التي يَعنيه تحرّيها ، ولم تتميز له من المستقبحة

---

(١) الخيم بالكسر السجية والطبيعة .

التي غرضه توقيها .

فمن أجل ذلك وجب أن نقول في الأخلاق قولاً نبين فيه ماالخُلُق وماعلَّته ، وكم أنواعه وأقسامه ، ومالمرضي منها ، المغبوط صاحبه ، **والمتخلّق به،** ومالمستثنى منها ، الممقوت فاعله ، والمتوسم به ، ليسترشد بذلك من كانت له همة سنية ، تسمو إلى مباراة أهل الفضل ، ونفس أبية تنبو عن مساواة أهل الدناءَة والنقص .

ونـدل أيضاً على طريق الارتياض بالمحمود من أنواعه والتدرب به ، وتنكب المذموم منها وتجنبه ، حتى يصير للمرتاض به ديدناً وعادة وسجية وطبعاً ، ليهتديَ به من نشأ على الأخلاق السيئة وألفها ، وجرى على العادة الرديئة وأنس بها .

ونصف أيضاً الإنسان التام المهذب الأخلاق ، المحيط بجميع المناقب الخُلقية ، وطريقته التي يصل بها إلى التمام ، ويحفظ عليه الكمال ، ليشتاق إلى صورته ، مَن تشوّف إلى الرتبة العليا ، ويحنّ إلى احتذاء سيرته ، من استشرف للغاية القصوى .

وقد ينتبه أيضاً بما نذكره ، من كانت له عيوب قد أشتبهت عليه ، وهو مع ذلك يظن أنه في غاية الكمال ، فإن مَن هذه حاله ، إذا تكرر عليه ذكر الأخلاق المكروهة ، تيقظ لما فيه من ذلك ، وأنف منه ، واجتهد في تركه والتنزه عنه .

وكذلك إذا تصفح الأخلاق المحمودة من كان جامعاً لأكثرها ، عادماً لبعضها ، قَرِم [١] إلى التخلق بذلك البعض الذي هو عادم له ، وتاقت نفسه

(١) القرم محركة شدة شهوة اللحم ، وكثر حتى قيل في الشوق إلى كل شيء .

إلى الأحاطة بجميعها ، وقد ينتفع بما نذكره أيضاً من كان في غاية الكمال والتام ، فإن المهذّب الأخلاق ، الكامل الآلات ، الجامع المحاسن ، إذا مرَّ بسمعه ذكر الخلائق الجميلة ، والمناقب النفيسة ، ورأى أن تلك هي عادته وسجاياه ، كانت له بذلك لذة عجيبة ، وفرحة مبهجة ، كما أن الممدوح يسر إذا ذكر المادح محاسنه ، ونشر فضائلة .

وأيضاً فإنه إذا وجد أخلاقه مدونة في الكتب ، موصوفة بالحسن ، كان ذلك داعياً إلى الاستمرار على سيرته ، والإصرار على طريقته .

وهذا حين بدئنا بذكر الأخلاق فنقول :

[الفصل الأول]

في تعريف الخلق - وأقسامها - وتأثرها بالنفوس

الخلق

[تعريفها - أقسامها]

إن الخُلق هو حال النفس ، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية لااختيار ، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً ، وفي بعضهم لايكون إلّا بالرياضة والاجتهاد ، كالسخاء قد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولاتعمّل ، وكالشجاعة والحلم والعفة والعدل وغير ذلك من الأخلاق المحمودة .

وكثير من الناس يوجد فيهم ذلك ، فمنهم من يصير إليه بالرياضة ، ومنهم من يبقى على عادته ، ويجري على سيرته .

[الأخلاق المذمومة]

فأما الأخلاق المذمومة فإنها موجودة في كثير من الناس كالبخل والجبن والظلم والتشرر ، فإن هذه العادات غالبة على أكثر الناس ، مالكة لهم بل قلما يوجد في الناس من يخلو من خلق مكروه ، ويسلم من جميع العيوب ، ولكنهم يتفاضلون في ذلك .

وكذلك في الأخلاق المحمودة ، قد يختلف الناس ويتفاضلون ، إلا أن المجبولين على الأخلاق الجميلة قليلون جداً والمبغضون لها (؟) .

فأما المجبولون على الأخلاق السيئة ، فأكثر الناس لأنّ الغالب على طبيعة الإنسان الشر[1] ، وذلك أن الإنسان إذا استرسل مع طبعه ، ولم يستعمل الفكر ولاالتمييز ، ولاالحياءَ ولاالتحفظ ، كان الغالب عليه أخلاق البهائم ، لأن الإنسان إنما يتميز عن البهائم ، بالفكر والتمييز ، فإذا لم يستعملها كان مشاركاً للبهائم في عاداتها ، والشهوات مستولية عليه ، والحياءُ غائب عنه ، والغضب يستفزه والسكينة غير حاضرة له ، والحرص والاحتشاد ديدنه ، والشره لا يفارقه .

فالناسُ مطبوعون على الأخلاق الرديئة . منقادون للشهوات الدنيئة ، وكذلك وقع الافتقار إلى الشرائع والسُّنن ، والسياسات المحمودة ، وعظم الانتفاع بالملوك الحَسَني السيرة ، ليردعوا الظالم عن ظلمه ، ويمنعوا الغاصب عن غصْبه ، ويعاقبوا الفاجر على فجوره ، ويقمعوا الجائر حتى يعود إلى الاعتدال في جميع أموره .

---

(١) بل هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها كما في الحديث « أن الإنسان يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

[التمييز والأخلاق المكروهه]

فالأخلاق المكروهة في طباع الناس ، إلا أن فيهم من يتظاهرُ بها ، وينقاد لها . وهم شرار الناس وفيهم من ينبه بجودة الفكر ، وقوة التمييز ، على قبحها ، فيأنف منها ، ويتصنع لاجتنابها ، وذلك يكون عن طبع كريم ، ونفس شريفة .

وفيهم من لاينتبه لذلك ، إلا أنه إذا نُبه عليه أحسَّ بقبحه ، فربما حمد نفسه على تركه .

وفيهم من إذا تنبه لما فيه من النقائص . أو نُبِّه عليها . ورام العدول عنها . تعذر عليه ذلك . ولم يطاوعه طبعه . وإن كان مؤْثراً للعدول عنها مجتهداً في ذلك .

وهذه الطائفة تحتاج أن تُرشد إلى طريق التدرب والتعمل للعادات المحمودة . حتى تصير إليها على التدريج .

ومن الناس من ينتبه على [١] الأخلاق الرديئة . أو ينبه عليها . فلا يحنُّ إلى تجنبها . ولاتسمح نفسه لمفارقتها . بل يؤْثر الإصرار عليها . مع علمه برداءتها وقبحها .

وهذه الطائفة ليس إلى تهذيبها طريق إلا بالقهر والتخويف والعقوبة إنْ لم يردعها الترهيب .

فأمّا الأخلاق المحمودة . فإنها وإن كانت في بعض الناس غريزة . فليست في جميعهم . وإن الباقين قد يمكن أن يصيروا إليها بالتدرب والرياضة ويترقوا

---

(١) لعله ينتبه إلى .

إليها بالاعتياد والإلف ومع هذه الحال فقد يكون في الناس من لا يقبل طبعه العادات الحسنة . ولاالخلق الجميل وذلك يكون لرداءة جوهره . وخبث عنصره .

وهذه الطائفة من جملة الأشرار الذين لا يرجى صلاحهم . وكثير من الناس من يقبل كثيراً من الأخلاق المحمودة وينبو طبعه عن بعضها . وليس يعد هذا شريراً . ولكن رتبته في الخير بحسب محاسنه .

[تأثير الأخلاق بالنفوس]

فأمّا العلّةُ الموجبة لاختلاف الأخلاق . فهي النفس . وللنفس ثلاث قوىً . وهي تسمّى أيضاً نفوساً .

١ ـ وَهي النفس الشهوانية ، ٢ ـ والنفس الغضبية ، ٣ ـ والنفس الناطقة وجميع الأخلاق تصدر عن هذه القوى .

فمنها ما يختص بإحداهن . ومنها ماتشترك فيه قوتان . ومنها ماتشترك فيه القوى الثلاث . ومن هذه القوى مايكون للإنسان وغيره من الحيوان : ومنها مايختص به الإنسان فقط .

[أولاً : النفس الشهوانية]

أمّا النفس الشهوانيّة فهي للإنسان ولسائر الحيوان . وهي التي يكون بها جميع اللذات . والشهوات الجسمانية . كالقَرَم إلى المآكل والمشارب والمباضعة . وهذه النفس قويةّ جداً متى لم يقهرها الإنسان ويؤدبها ملكته واستولت عليه . فإذا استولت عليه . عسر تهذيبها . وصعب قمعها وتذليلها .

فإذا تمكنت هذه النفس من الإنسان وملكته . وانقاد لها كان بالبهائم أشبه منه بالناس . لأن أغراضه ومطلوباته وهمته تصير أبداً مصروفةً إلى الشهوات

واللذات فقط . وهذه هي عادة البهائم .

ومن يكون بهذه الصفة يقلُّ حياؤه . ويكثُرُ خرقه . ويستوحش من أهل الفضل . ويميل إلى الخلوات . وينقبض عن المجالس الحَفْلة . ويبغض أهل العلم . ويشنأ أهل الورع والنسك . ويود أصحاب الفجور . ويستحب الفواحش . ويكثر ذكرها ويَلَذُّ استماعها . ويسر بمعاشرة السخفاء . ويغلب عليه الهزل وكثرة اللهو . وقد يصير من هذه حاله إلى الفجور . وارتكاب الفواحش . والتعرض للمحظورات . وربما دعته محبة اللذات إلى اكتساب الأموال من أقبح وجوهها . وربما حملته نفسه على الغضب والتلصص والخيانة . وأخذ ما ليس له بحق . فإن اللذات لا تتم إلا بالأموال والأعراض . فمحب اللذة إذا تعذرت عليه الأموال من وجوهها . جسَّرته شهوته على اكتسابها من غير وجوهها .

ومن تنتهي به شهواته إلى هذا الحدّ . فهو أسوأ الناس حالاً . وهو من الأشرار الذين يخاف خبثهم . ويستوحش منهم . ويستروح إلى البعد عنهم . ويصير واجباً على متوَلّي السياسات تقويمهم وتأديبهم . وإبعادهم ونفيهم . حتى لا يختلطوا بالناس . فإن في اختلاط من هذه صفته بالناس . مضرة لهم . وخاصَّةً لأحداثهم . فإنّ الحدث سريع الانطباع . ونفسه مجبولة على الميل إلى الشهوات . فإذا شاهد غيره مرتكباً لها . مستحسناً للانهاك فيها . مال هو أيضاً إلى الاقتداء به وإلى مساعدة لذته .

[قهر النفس الشهوانية]

وأمّا من ملك نفسه الشّهوانيّة وقهرها . كان ضابطاً لنفسه . عفيفاً في شهواته . محتشماً من الفواحش متوقياً من المحظورات . محمود الطريقة في جميع ما يتعلق باللذات .

فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في شهواتهم ولذاتهم . وعفة بعضهم . وفجور بعضهم . هو اختلاف أحوال النفس الشهوانية . فإنها إذا كانت مهذبة مؤدبةً . كان صاحبها عفيفًا . ضابطًا لنفسه ، وإذا كانت مهملة مرسلةً . مالكة لصاحبها كان صاحبها فاجرًا شريرًا . وإذا كانت متوسطة الحال كانت رتبة صاحبها في العفة . كرتبتها في التأدب .

[علاج النفس الشهوانية]

فمن أجل ذلك وجب أن يؤدب الإنسان نفسه الشهوانية ويهذبها حتى تصير منقادة له ويكون هو مالكها فيستعملها في حاجاته التي لاغنى عنها ويكفها عما لا حاجة بهِ إليهِ من الشهوات الرديئة واللذات الفاحشة .

[ثانياً النفس الغضبية]

فأمّا النفْس الغضبيّة فيشترك فيها أيضاً الإنسان وسائر الحيوان وهي التي بها يكون الغضب والجرأة ومحبة الغَلبة .

وهذه النفس أقوى من النفس الشهوانية وأضرُّ لصاحبها إذا ملكته وانقاد لها فإن الإنسان إذا انقاد للنفس الغضبية كثر غضبه وظهر خرقه واشتد حقده وعُدم حلمه ووقاره وقويت جُرأتُه وتسرع عند الغضب إلى الانتقام والإيقاع بغضبه والوثوب بخصومه فأسرف في العقوبة وزاد في التشفّي فأكثر السبَّ وأفحش فيه .

فإذا استمرت هذه العادات بالإنسان كان بالسباع أشبه منهُ بالناس وربما حمل قومًا على حمل السلاح وربما أقدموا على القتل والجراح وربما وثبوا بالسلاح على إخوانهم وأوليائهم وعبيدهم وخَدَمِهم عند الغضب من اليسير من الأمور وربما غضب من هذه حاله ولم يقدر على الانتقام من خصمهِ فيعود

بالضرر والسبّ والألم على نفسهِ : فمنهمْ من يلطم وجهه وينتف لحيته ويعض يده ويسبُّ نفسه ويذكر عرضه .

[من آثار النفس الغضبية]

وأيضاً فإنّ من تملكه النفس الغضبية يكون محباً للغلبة متوثباً على مَن آذاه مقدماً على كل من ناوأة طالباً للترؤس من غير وجههِ فإذا لم يتمكن من الرئاسة من وجهها توصل إليها بالحيل الخبيثة فاستعمل كل مايمكنهُ من الشر .

وهذه الأفعال تورّط صاحبها وتوقعهُ في المهاوي والمهالك فإن من وثب على الناس وثبوا عليهِ ومن خاصمهم خاصموه ومن أقدم عليهم أقدموا عليهِ ومن تشرر عليهم قصدوه بالشر . وربما سَفه الإنسان على خصمهِ وكان الخصم أسفه منه فإن ناله بسوءٍ قابله ذاك بأكثر منهُ .

وقد يغلب على من هذه حاله الحسد والخفة والقحة واللّجاج والجور وقد تحمل هؤلاء محبة الغلبة وطلب الرئاسة على اكتساب الأموال من غير وجهها وأخذها بالغصب والغلبة والظلم وربما قتلوا على محبة الغلبة من يناوئهم وربما فعلوا ذلك من غير رويَّةٍ فيؤول الأمر بهم إلى البوارِ والاستئصال .

[تأديب النفس الغضبية]

فأمّا مَنْ ساس نفسه الغضبية وأدبها وقمعها كان حليماً وقوراً عادلاً محمود الطريقة فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في غضبهم وخرقهم وحلمهم وسفاهة بعضٍ هو اختلاف أحوال النفس الغضبية : إذا كانت مذللة مقهورة كان صاحبها حليماً وقوراً وإذا كانت مهملة مستولية على صاحبها كان صاحبها

غضوباً سفيهاً ظلوماً غشوماً وإذا كانت متوسطة الحال كان صاحبها متوسط الحال رتبتهً في الحلم كرتبة نفسه الغضبية في التأدب .

فمن أجل ذلك وجب أن يروض الإنسان نفسه الغضبية حتى تنقاد له فيملكها ويستعملها في المواضع التي يجب استعمالها فيها فإن لهذه النفس أيضاً فضائل محمودةً وذاك أن الأنفة من الأمور الدنيئة ومحبة الرئاسة الحقيقية وطلب المراتب العالية من الأخلاق المحمودة وهي من أفعال النفس الغضبية فإذا ملك الإنسان هذه النفس بالتأديب والتهذيب واستعملها في الأمور الجميلة وكفها عن الأفعال المكروهة كان حسن الحال محمود الطريقة .

[ثالثاً النفس الناطقة]

وأمّا النفسُ الناطقة وهي التي بها يتميز الإنسان من جميع الحيوان وهي التي بها يكون الفكر والذكر والتمييز والفهم وهي التي بها شرف الإنسان وعظمت همتهُ فأُعجب بنفسهِ وهي التي بها تستحسن المحاسن وتستقبح القبائح وبها يمكن الإنسان أن يهذب قوتيه الأُخريين وهما الشهوانية والغضبية ويضبطها ويكفّها وبها يفكر في عواقب الأمور فيبادر باستدراكها من أولها .

[فضائل النفس الناطقة]

ولهذه النفسُ أيضاً فضائل ورذائل .

أمّا فضائلها فاكتسابُ العلوم والآداب وكفُّ صاحبها عن الرذائل والفواحش وقهر النفسين الأخريين وتأُديبها وسياسة صاحبها في معاشهِ ومكسبهِ ومروءَتِه وتجملهِ وحث صاحبها على فعل الخير والتودد والرقة وسلامة النية والحلم والحياء والنسك والعفة وطلب الرئاسة من الوجوه الجميلة .

[عيوب النفس الناطقة]

وأمّا رذائلها فالخُبْث والحيلة والخديعة والملق والمكر والحسد والتشرر والرياء وهذه النفس هي لجميع الناس إلا أن منهم من تغلب عليه فضائلها فيستحسنها ويستعملها ومنهم من تغلب عليه رذائلها فيألفها ويستتر عليها ومنهم من تجتمع فيه بعض الفضائل وبعض الرذائل . وهذه العادات قد تكون في كثير من الناس سجية وطبعاً لابتكلف .

فأمّا المطبوعُ على العادات الجميلة منها فتكون لقوة نفسهِ الناطقة وشرف عنصره .

وأمّا المطبوعُ على العادات المكروهة فلضعف نفسه الناطقة وسوء جوهره وأما الذي تجتمع فيهِ فضائل ورذائل فهو الذي تكون نفسه الناطقة متوسطة الحال .

وقد يكتسب أكثر الناس هذه العادات وجميع الأخلاق جميلها وقبيحها اكتساباً وذلك يكون بحسب منشأ الإنسان وأخلاق من يحيطِ به ويشاهده ويقرب منه وبحسب رؤساء وقتهِ ومن يشار إليهِ بالنباهة ويغبط على رتبته. فإن الحدث والناشيء يكتسب الأخلاق ممن يكثر ملابسته ومخالطته ومن أبويه وأهله وعشيرته .

فإذا كان هؤلاء سيئي الأخلاق مذمومي الطريقة كان الحدث والناشئُ بينهم أيضاً سيءً الأخلاق مكروه العادات وإذا لحظ الحدث أيضاً أهل الرئاسة ومن فوقه وغبطهم على مراتبهم آثر التشبه بهم والتخلق بأخلاقهم .

فإن كانوا مهذبي الأخلاق حسني السيرة كان المتشبه بهم حسن الأخلاق مرضيّ الطريقة وإن كانوا أشراراً جهالاً كان الضابط لهم والسالك طريقهم شريراً جاهلاً .

وهـذه الحـال هي أخـلاق أكثر النـاس فـإن الجهـل والشرّ والخبث والشرَه والحسد غالب عليهم والناس بالطبع يقتدي بعضهم ببعضٍ ويحتذي التـابع أبـداً سيرة المتبـوع وإذ كان الغـالب عليهم الشر والجهـل كان واجبـاً أن يقتـدي أحداثهم وأولادهم وتبّاعهم بهم .

فالعلةُ الموجبة لاختلاف أخلاق الناس في سياساتهم وفضائلهم وغلبـة الخير والشر عليهم هي اختلاف قوة النفس النـاطقـة فيهم : إذا كانت خيرةً فـاضلـةً قـاهرة للنفسين البـاقيتين كان صـاحبهـا خيراً عـادلاً حسن السيرة وإذا كانت شريرة خبيثة مهملة للنفسين الأخريين ، كان صاحبها شريراً خبيثاً جاهلاً .

فمن أجل ذلكَ وجب أن يُعمل الإنسان فكره ويميز أخلاقه ويختار منها مـا كان مستحسنـاً جميلاً وينفي منهـا مـاكان مستنكراً قبيحـاً ويحمـل نفسـه على التشبه بالأخيار ويتجنب كل التجنب عادات الأشرار فإنه إذا فعل ذلك صـار بالإنسانية متحققاً وللرئاسة الذاتية مستحقاً .

الفصل الثاني

[أنواع الأخلاق وأقسامها]

فأمّا أنواع الأخلاق وأقسـامُها ومـاالمستحسن منهـا ومـاالمستحب اعتيـاده ويعد فضائل ومـاالمستقبح منهـا المكروه ويعـد نقـائص ومعـايب فهي الأنواع التي نحن واصفوها .

أولاً : [الأخلاق الفاضلة]

١ - [العفه]

أمّا التي تعـدّ فضـائل فـإن منهـا العفـة وهي ضبـط النفس عن الشهـوات وقسرها عى الاكتفاء بما يقيم أود الجسد ويحفظ صحته فقـط واجتنـاب السرف

والتقصير في جميع اللذات وقصد الاعتدال وأن يكون مايقتصر عليه من الشهوات على الوجه المستحب المتفق على ارتضائه وفي أوقات الحاجة التي لاغنىً عنها وعلى القدر الذي لايحتاج إلى أكثر منه ولايحرس النفس والقوة أقلُّ منه وهذه الحال هي غاية العفة .

٢ - [القناعة]

ومنها القناعةُ وهي الاختصار على ماسنح من العيش والرضا بما تسهل من المعاش وترك الحرص على اكتساب الأموال وطلب المراتب العالية مع الرغبة في جميع ذلك وإيثاره والميل إليه وقهر النفس على ذلك والتقنع باليسير منه .

وهذا الخُلق مستحسن من أوساط الناس وأصاغرهم فأما الملوك والعظماء فليس ذلك مستحسناً منهم ولاتعد القناعة من فضائلهم .

٣ - [التصون]

ومنها التصوّن وهو التحفظ من التبذل : فمن التصون التحفظ من الهزل القبيح ومخالطة أهله وحضور مجالسه وضبط اللسان من الفحش وذكر الخنا والمزح والسخف وخاصة في المحافل ومجالس المحتشمين ولاأُبهة لمن يسرف في المزح ويفحش فيه .

ومنَ التصوّن أيضاً الانقباض من أدنياء الناس وأصاغرهم ومصادقتهم ومجالستهم والتحرز من المعايش الزرية واكتساب الأموال من الوجوه الخسيسة والترفع عن مسألة الحاجات لئامَ الناس وسِفلتهم والتواضع لمن لا قدر له والإقلال من البروز من غير حاجةٍ والتبذل بالجلوس في الأسواق وقوارع الطرق من غير اضطرار فإن الإكثار من ذلك مخلق . وأعظم الناس قدراً من ظهر اسمه وخفي شخصه .

٤ - [الحلم]

ومنها الحلمُ وهو ترك الانتقام عند شدة الغضب مع القدرة على ذلك وهذه الحال محمودة مالم تؤدِّ إلى ثَلم جاهٍ أو فساد سياسةٍ وهي بالرؤساء والملوك أحسن لأنهم أقدر على الانتقام من مغضبيهم ولا يعد فضيلة حلم الصغير عن الكبير وإن كان قادراً على مقابلتهِ في الحال فإنه وإن أمسك فإنما يعدّ ذلك خوفاً لاحلماً .

٥ - [الوقار]

ومنها الوَقار وهو الإمساك عن فضول الكلام والعَبَث ، وكثرة الإشارة والحركة ، فيما يستغنى عن التحرك فيه ، وقلة الغضب والإصغاء عند الاستفهام والتوقف عن الجواب ، والتحفظ من التسرع ، والمباكرة في جميع الأمور .

٦ - [الحياء]

ومِنْ قبيل الوقار أيضاً الحياء وهو غض الطرف والانقباض عن الكلام حشمة للمستحيا منه ، وهذه العادة محمودة مالم تكن عن عيّ ، ولاعجز .

٧ - [الوُدّ]

ومنها الوُدّ هو المحبة المعتدلة من غير اتباع الشهوة ، والود مستحسن من الإنسان إذا كان وده لأهل الفضل والنبل ، وذوي الوقار والأُبهة ، والمتميزين من الناس ، فأما التودد إلى أراذل الناس وأصاغرهم والأحداث والنسوان وأهل الخلاعة فمكروه جداً . وأحسن الود مانسجته بين منوالين متناسبة الفضائل وهو أوثق الود وأثبته ، فأما ماكان ابتداؤه اجتماعاً على هزل ، أو لطلب لذةٍ ، فليس محموداً ، وليس بباقٍ ولاثابت .

٨ ـ [الرحمة]

ومنها الرحمةُ وهو خلق مركب من الود والجزع ! والرحمة لاتكون إلا لمن تظهر منه لراحمه خلة مكروهة ، إما نقيصة في نفسه وإما محبة عارضة . فالرحمة هي محبة للمرحوم ، مع جزعٍ من الحال التي من أجلها رُحم .

وهذه الحال مستحسنة ، مالم تخرج بصاحبها عن العدل ولم تنته به إلى الجور ، وإلى فساد السياسة ، فليس بمحمود ، رحمة القاتل عند القود ، والجاني عند القصاص .

٩ ـ [الوفاء]

ومنها الوفاء ،وهو الصبر على مايبذله الإنسان من نفسه ويرهن به لسانه ، والخروج مما يضمنه وإن كان مجحفاً به ، فليس يعدُّ وفياً من لم تلحقه بوفائِه أذية وإن قلت ، وكلما أضرَّ بهِ الدخول تحت ماحكم بهِ على نفسهِ كان أبلغ في الوفاء .

وهذا الخلق محمود ينتفع بهِ جميع الناس ، فإن من عُرف بالوفاء ، كان مقبول القول في جميع مايعد بهِ .، ومن كان مقبول القول ، كان عظيم الجاه ، إلا أن انتفاع الملوك بهذا الخلق أكثر ، وحاجتهم إليهِ أشد . وأنهُ متى عُرف منهم قلة الوفاء ، لم يوثق بمواعيدهم ، ولم تتم أغراضهم ، ولم تسكن إليهم جندهم وأعوانهم .

١٠ ـ [الأمانة]

ومنها أداءُ الأمانة وهو التعفف عما يتصرف الإنسان فيه من مال وغيره ومايوثق بهِ عليهِ من الأعراض والحرم مع القدرة عليه ، ورد مايستودع إلى مودعه .

١١ - [كتمان السر]

ومنها كتمان السر وهذا الخلق مركب من الوقار وأداء الأمانة فإن إخراج السر من فضول الكلام وليس بوقور من تكلم بالفضول .

وأيضاً فكما أنهُ من استودع مالاً فأخرجه إلى غير مودعهِ ، فقد خفر الأمانة كذلك من استودع سرًّا فأخرجه إلى غير صاحبه فقد خفر الأمانة . وكتمان السر محمود من جميع الناس ، وخاصةً ممن يصحب السلطان ، فإن إخراجه أسراره مع أنه قبيح في نفسه يؤدي إلى ضرر عظيم يدخل عليهِ من سلطانهِ .

١٢ - [التواضع]

ومنها التواضع وهو ترك الترؤس ، وإظهار الخمول ، وكراهية التعظيم والزيادة في الإكرام ، وأن يتجنب الإنسان المباهاة بما فيهِ من الفضائل ، والمفاخرة بالجاه والمال ، وأن يتحرز من الإعجاب والكبر ؛ وليس يكون التواضع إلا في أكابر الناس ورؤسائهم وأهل الفضل والعلم . وأما سوى هؤلاء فليس يكونون متواضعين لأن الضِّعَة هي محلهم ومرتبتهم فهم غير متصنعين لها .

١٣ - [البِشر]

ومنها البشر ، وهو إظهار السرور بما يلقاه الإنسان من إخوانهِ وأودائهِ وأصحابهِ وأوليائهِ ومعارفهِ ، والتبسم عند اللقاء ، وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس ، وهو من الملوك والعظماء أحسن وإن البشر في الملوك تتألف به قلوب الرعية والأعوان والحاشية ويزداد به تحببا إليهم وليس سعيداً من الملوك من كان مبغضاً إلى رعيتهِ ، وربما أدى ذلك إلى فساد أمره وزوال ملكه .

١٤ - [اللهجة]

ومنها صدق اللهجة وهو الإخبار عن الشيء على ماهو بهِ ، وهذا الخلق مستحسن ، مالم يؤدِ إلى ضرر مجحف ، فإنه ليس بمستحسن صدق الإنسان إن سئل عن فاحشة كان ارتكبها فإنهُ لايفي صدقه بما يلحقه في ذلك العار والمنقصة الباقية اللازمة .

وكذلك ليس يحسن صدقه متى سئل عن مستجير استجاره فأخفاه ، ولا إن سُئل عن جنايته متى صدق عنها عوقب عليها عقوبة مؤلمة .

والصدق مستحسن من جميع الناس وهو من الملوك والعظماء أحسن ، بل لايسعهم الكذب مالم يعد الصدق عليهم بضرر .

١٥ - [سلامة النية]

ومنها سلامة النية وهو اعتقاد الخير لجميع الناس ، وتنكب الخبث والغيلة والمكر والخديعة .

وهذا الخلق محمود من جميع الناس إلا أنه ليس يصلح للملوك التخلق بهِ دائماً ولا يتم الملك إلا باستعمال المكر والحيل ، والاغتيال مع الأعداء ولكن يحسن لهم استعماله مع أوليائهم وأصفيائهم وأهل طاعتهم .

١٦ - [السخاء]

ومنها السخاء وهو بذل المال من غير مسألة ولااستحقاق وهذا الفعل مستحسن مالم ينتهِ إلى السرف والتبذير فإن من بذل جميع مايملكه لمن لايستحقه لم يسمَّ سخياً بل يسمى مبذراً مضيعاً .

والسخاءُ في سائر الناس فضيلة مستحسنة فأما في الملوك فأمر واجب لأن

البخل يؤدي إلى الضرر العظيم في ملكهم ، والسخاء والبذل يرتهن به قلوب الرعية والجند والأعوان فيعظم الانتفاع به .

١٧ - [الشجاعة]

ومنها الشجاعة وهو الإقدام على المكاره والمهالك عند الحاجة إلى ذلك ، وثبات الجأش عند المخاوف ، والاستهانة بالموت .

وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس وهو بالملوك وأعوانهم أليق وأحسن ، بل ليس بمستحق للملك من عدم هذه الخلة ، فأكثر الناس أخطاراً ، وأحوجهم إلى اقتحام الغمرات ، هم الملوك . فالشجاعة من أخلاقهم الخاصة بهم .

١٨ - [المنافسة]

ومنها المنافسة وهي منازعة النفس إلى التشبه بالغير فيما يراه له وهو يرغب فيه لنفسه ، والاجتهاد في الترقي إلى درجة أعلى من درجته .

وهذا الخلق محمود إذا كانت المنافسة في الفضائل ، والمراتب العالية ومايكسب مجداً وسؤدداً فأما في غير ذلك من اتباع الشهوات ، والمباهاة باللذات ، والزينة والنزه فمكروه جداً .

١٩ - [الصبر عند الشدائد]

ومنها الصبر عند الشدائد وهذا الخلق مركب من الوقار والشجاعة ، ومستحسن جداً مالم يكن الجزع نافعاً ، ولاالحزن والقلق مجدياً ، ولاالحيلة والاجتهاد دافعة سوْرة تلك الشدائد ، فما أحسن الصبر إذا عدمت الحيلة ، وماأقبح الجزع إذا لم يكن مفيداً .

٢٠ - [عظم الهمة]

ومنها **عِظمُ الهمّة** وهو استصغار مادون النهاية من معالي الأمور ، وطلب المراتب السامية ، واستحقار مايجود به الإنسان عند العطية ، والاستخفاف بأوساط الأمور ، وطلب الغايات ، والتهاون بما يملكه ، وبذل ما يمكنه لمن يسأله من غير امتنان ولااعتداد به .

وهذا الخلق من أخلاق الملوك خاصة وقد يحسن بالرؤساء والعظماء ومن تسمو نفسه إلى مراتبهم .

ومن عظم الهمّة الأنفة ، والحمية ، والغيرة . والأَنَفة هو نبوُّ النفس عن الأمور الدنيئة . والحمية والغيرة جميعاً هما الغضب عند الإحساس بالنقص وإنما تلحق الإنسان الغيرة على الحرم لأن في التعرض لهنَّ عاراً ومنقصة . فإن المتعرض للحرم مهتضم لصاحبهنَّ في غير حق له ، والاهتضام نقيصة .

ومن عظم الهمة الأَنفة من الاهتضام ، ودخول النقص . وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس .

٢١ - [العدل]

ومنها العدلُ وهو القسط اللازم للاستواء وهو استعمال الأمور في مواضعها وأوقاتها ووجوهها ومقاديرها من غير سرفٍ ولاتقصير ولاتقديم ولاتأخير .

ثانيا [الأخلاق الردية]

١ - [الفجور]

فأمّا الأخلاقُ الرديّة التي تعد نقائص ومعايب فإنَّ منها الفجور وهو الانهماك في الشهوات ، والاستكثار منها ، والتوفر على اللذات ، والإدمان عليها ، وارتكاب الفواحش ، والمجاهرة بها ، وبالجملة السرف في جميع الشهوات .
وهذا الخلق مكروه جداً يهدم الجاه ويذهب بماء الوجه ويخرق حجاب الحشمة.

٢ - [الشَّرهُ]

ومنها الشَّرهُ وهو الحرص على اكتساب الأموال وجمعها ، وطلبها من كل وجه ، وإن قبح التعسف في اكتسابها ، والمكالبة عليها ، والاستكثار من القنية وادخار الأعراض .

وهذا الخلق مكروه من جميع الناس ، إلا من الملوك ، فإن كثرة الأموال والذخائر والأعراض تعين على الملك ، وتزين الملوك ، وتزيدهم هيبة في نفوس رعيتهم وأعوانهم وأعدائهم وأضدادهم .

٣ - [التبذل]

ومنها التبذل وهو اطراح الحشمة ، وترك التحفظ والإكثار من الهزل واللهو ، ومخالطة السفهاء ، وحضور مجالس السخف والهزل والفواحش والتفوه بالخنا ، وذكر الأعراض ، والمزح والجلوس في الأسواق ، وعلى قوارع الطرق ، والتكسب بالمعايش الزرية ، والتواضع للسفلة وهذا الخلق قبيح بجميع الناس .

٤ - [السفه]

ومنها السفهُ وهو ضد الحلم ، وهو سرعة الغضب والطيش من يسير الأمور ، والمبادرة في البطش ، والإيقاع بالمؤذي ، والسرف والعقوبة ، وإظهار الجزع من أدنى ضرر ، والسبُّ الفاحش .

وهذا الخلق مستقبح من كل أحد إلا أنه من الملوك والرؤساء أقبح .

٥ - [الخرق]

ومنها الخرق وهو كثرة الكلام ، والتحرك من غير حاجة وشدة الضحك والمبادرة إلى الأمور من غير توقف ، وسرعة الجواب .

وهذا الخلق مستقبح من كل أحد وهو بأهل العلم وذوي النباهة أقبح .

٦ - [القحة]

ومن قبيل الخرق القِحة وهو قلة الاحتشام لمن يجب احتشامه ، والمجاهرة بالجوابات الفظة المستشنعة .

وهذا الخلق مكروه وخاصة بذوي الوقار .

٧ - [العشق]

ومنها العشق وهو إفراط الحب والسرف فيه .

وهذا الخلق مكروه على جميع الأحوال ، إلا أن أقبحه وأشرَهَهُ ما كان مصروفاً إلى طلب اللذة ، واتباع الشهوة الرديئة . وقد يحمل هذا الخلق صاحبه على الفجور ، وارتكاب الفواحش ، وكثرة التبذل ، وقلة الحياء ، ويكسبه عادات رديئة ، وهو بكل أحد قبيح ، إلا أنه بالأحداث والمترفهين والمتنعمين أقل قبحاً .

٨ - [القساوة]

ومنها القساوة وهو خلق مركب من البغض والشجاعة والقساوة وهو التهاون بما يلحق الغير من الألم والأذى .

وهذا الخلق مكروهٌ من كل أحد إلا من الجند وأصحاب السلاح والمتولين للحروب فإن ذلك غير مكروه منهم إذا كان في موضعه .

٩ - [الغدر]

ومنها الغدر وهو الرجوع عما يبذله الإنسان من نفسه ويضمن الوفاء به .
وهذا الخلق مستقبح وإن كان لصاحبه فيه مصلحة ومنفعة وهو بالملوك

والرؤساء أقبح ولهم أضرّ فإن من عُرف من الملوك بالغدر . لم يسكن إليه أحد ولم يثق به وإذا لم يسكن إليه فسد نظام ملكه .

١٠ - [الخيانة]

ومنها الخيانة وهو الاستبداد بما يؤْتمن الإنسان عليه من الأموال والأعراض والحرم وتملّك ما يستودع . ومجاحدة مودعه .

ومن الخيانة أيضاً طيُّ الأخبار إذا ندب لتأديتها ، وتحريف الرسائل إذا تحملها وَصرْفها عن وجوهها .

وهذا الخلق أعني الخيانة مكروه من جميع الناس يثلم الجاه ويقطع وجوه المعايش .

١١ - [إفشاء السر]

ومنها إفشاءُ السر وهذا الخلق مركب من الخرق والخيانة فإنه ليس بوقور من لم يضبط لسانه ، ولم يتسع صدره لحفظ ما يستسر به .

ومن قبيل السر أخذ الودائع . وإفشاؤه نقيصته على صاحبه فالمفشي للسر خائن .

وهذا الخلق قبيح جداً وخاصة بمن يصحب السلاطين ويداخلهم .

١٢ - [النميمة]

ومن قبيل إفشاءُ السر النميمة وهو أن يبلغ إنساناً عن آخر قولاً مكروهاً وهذا الخلق قبيح جداً وإن لم يستسر أيضاً بما يسمعه أو يبلغه فنقله إلى من يكرهه قبيح لأن في ذلك إيقاع وحشة بين المبلّغ والمبلَّغ وذلك غاية التشرر .

١٣ ـ [الكبر]

ومنها الكبر هو استعظام الإنسان نفسه واستحسان مافيه من الفضائل والاستهانة بالناس واستصغارهم والترفع على من يجب التواضع له .

وهذا الخلق مكروهٌ ضارٌ لصاحبه ، لأن من أعجبته نفسه ، لم يستزد من اكتساب الأدب ومن لم يستزد بقي على نقصه فإن الإنسان ليس يخلو من النقص وقلما ينتهي إلى غاية الكمال .

وأيضاً فإن هذا الفعل يبغضه إلى الناس ومن أبغضه الناس ساءَت حاله .

١٤ ـ [العبوس]

ومنها العبوس وهو التقطيب عند اللقاء وقلة التبسم وإظهار الكراهية وهذا الخلق مركب من الكبر وغلظ الطبع فإن قلة البشاشة هي استهانة بالناس والاستهانة بالناس تكون من الإعجاب والكبر .

وقلة التبسم وخاصة عند لقاء الإخوان تكون من غلظ الطبع . وهذا الخلق مستقبح وخاصة بالرؤساء والأفاضل .

١٥ ـ [الكذب]

ومنها الكذب وهو الإخبار عن الشيء بخلاف ماهو به . وهذا الخلق مكروه مالم يكن لدفع مضرة لايمكن أن تُدفع إلا به أو اجترار نفع لاغنىً عنه ولايوصل إليه إلا به . فإن الكذب عند ذلك ليس بمستقبح وإنما يستقبح الكذب إذا كان عبثاً . ولنفع يسير لاخطر له . لايفي بقباحة الكذب . والكذب يقبح بالملوك والرؤساء أكثر . لأن اليسير من النقص يَشينهم .

١٦ - [الخبث]

ومنها الخبث وهو إضمار الشر للغير وإظهار الخير له واستعمال الغيلة والمكر والخديعة في المعاملات .

وهذا الخلق مكروه من جميع الناس إلا من الملوك والرؤساء فإنهم إليه مضطرون واستعمالهم إياه مع أضدادهم وأعدائهم غير مستقبح فأما مع أوليائهم وأصحابهم فإنه غير مستحسن .

١٧ - [الحقد]

ومن قبيل الخبث الحقد وهو إضمار الشر للجاني إذا لم يتمكن من الانتقام منه فأخفى ذلك الاعتقاد إلى وقت إمكان الفرصة .

وهذا الخلق من أخلاق الأشرار وهو مذموم جداً .

١٨ - [البخل]

ومنها البخل وهو منع المسترفد مع القدرة على رفده . وهذا الخلق مكروه من جميع الناس إلا أنه من النساء أقل كراهية ، بل قد يستحب من النساء البخل . فأما سائر الناس فإن البخل يشينهم . وخاصة الملوك والعظماء فإن البخل أبغض منهم أكثر مما أبغض من الرعية والعوام ويقدح في ملكهم لأنه يقطع الأطماع منهم ويبغّضهم إلى رعيتهم .

١٩ - [الجبن]

ومنها الجبن وهو الجزع عند المخاوف والإحجام عما تُحذر عاقبته أو لاتؤمن مغبته .

وهذا الخلق مكروه بجميع الناس إلا أنه للملوك والجند وأصحاب الحروب أضر.

٢٠ - [الحسد]

ومنها الحسد وهو التألم بما يراه الإنسان لغيره من الخير ومايجده فيه من الفضائل والاجتهاد في إعدام ذلك الغير ماهو له .

وهذا الخلق مكروه وقبيح بكل أحد .

٢١ - [الجزع]

ومنها الجزع عند الشدة وهذا الخلق مركب من الخرق والجبن وهو مستقبح إذا لم يكن مُجْدياً ولامفيداً .

فأما إظهار الجزع لتحّل حيلة بذلك عند الوقوع في الشدة أو استغاثة مغيث أو اجتلاب معين فيما تغني فيه المعاونة فغير مكروه ولايعد نقيصة .

٢٢ - [صغر الهمة]

ومنها صغر الهمة وهو ضعف النفس عن طلب المراتب العالية ، وقصور الأمل عن بلوغ الغايات ، واستكثار اليسير من الفضائل واستعظام القليل من العطايا والاعتداد به والرضى بأوساط الأمور وأصاغرها .

وهذا الخلق قبيح بكل أحد وهو بالملوك أقبح بل ليس بمستحق الملك من صغرت همته .

٢٣ - [الجور]

ومنها الجور وهو الخروج عن الاعتدال في جميع الأمور والسرف والتقصير وأخذ الأموال من غير وجهها والمطالبة بما لايجب من الحقوق الواجبة وفعل الأشياء في غير مواضعها ولاأوقاتها ولاعلى القدر الذي يجب ولا على الوجه الذي يَجَبَ .

ثالثاً [أخلاق تحتمل أمرين]

ومن الأخلاق ماهو في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة .

١ - [حب الكرامة]

فمنها حب الكرامة وهو أن يسرَّ الإنسان بالتعظيم والتبجيل والمقابلة بالمدح والثناء الجميل . وهذا الخلق محمود في الأحداث والصبيان لأن محبته تحثهم على اكتساب الفضائل وذاك أن الحدث والصبي إذا مُدح على فضيلة تُرى فيه كان ذلك داعياً له إلى الازدياد من الفضائل .

فأما الأفاضل من الناس فإن ذلك يعدُّ منهم نقيصة لأن الإنسان إنما يمدح على الفضيلة إذا كانت مستغربةً منهُ وإذا كان من أهل الفضل فليس ينبغي أن يسر ولا يستغرب مايظهر منه من الفضائل .

وكذلك الإكرام والتبجيل إن كان زائداً على استحقاقه فإنه يجري مجرى الملق والسرور بالملق غير محمود لأنه من جنس الخديعة .

٢ - [حب الزينة]

ومنها حب الزينة وهو التصنع بحسن البزّة والمركوب والالآت وكثرة الخدم والحشم وهذا مستحسن من الملوك والعظماء والأحداث الظرفاء والمتنعمين والنساء .

فأما الرهبان والزهاد والشيوخ وأهل العلم وخاصة الخطباء والواعظين ورؤساء المدن فإن الزينة والتصنّع مستقبح منهم . والمستحسن منهم لبس الشعر والخشن والمشي والحفا ولزوم المساجد وكراهية التنعم .

٣ - [المجازاة على المدح]

ومنها المجازاة على المدح وهو مجازاة من يمدح الإنسان ويشكره في المجالس والمحافل وهذا الخلق مستحسن من الملوك والرؤساء لأن ذلك يدعو الذي يمدح الإنسان إلى مدحه ويكسب الممدوح ذكراً جميلاً يبقى على الدهر .

ومن فضائل الملوك والرؤساء بقاءُ ذكرهم الجميل . فأما محبتهم سماع المدح من المادح مواجهة فذلك غير مستحب لأنه من جنس الملق . وحب المَلَق مكروه لأنه من قبيل الخديعة .

فأما إيثارهم انتشار الذكر والمدح وتداول الناس له وبقاؤه بعدهم فإن ذلك محمود منهم .

فمجازاة المادح مستحسنة من الملوك ومنعهم مستقبح وضار لأَن ذلك يدعو إلى ذمهم وذمهم يبقى أيضاً على الدهر فينشر لهم ذكراً قبيحاً وذلك مكروه للملوك والرؤساء .

فأما أصاغر الناس فمحبتهم جزاءَ المادح لهم غير مستحسن لأَن المادح إذا مدح الدنيَّ من الناس فإنما يخدعه . فإذا أَجازه اعتقد أنه استنفز[1] منه تلك الجائزة .

وكثير من الناس إذا مُدحوا بما ليس فيهم فيبادرون إلى مجازاة المادح فيكونون قد وضعوا الشيء في غير موضعه وهم إذا صرفوا ذلك الشيء إلى الضعفاء وأهل المسكنة كان أجمل بهم وأَليق .

(١) كذا في الأصل ولعله مصحف استنقذ .

٤ - [الزهد]

ومنها الزهد وهو قلة الرغبة في الأموال والأعراض والادخار والقنية وإيثار القناعة بما يقيم الرمق ، والاستخفاف بالدنيا ومحاسنها ولذاتها وقلة الاكتراث بالمراكب العالية واستصغار الملوك وممالكهم وأرباب الأموال وأموالهم .

وهذا الخلق مستحسن جداً ولكن من العلماء ورؤساء الدين والخطباء والواعظين ومن يرغّب الناس في المعاد والبقاء بعد الموت .

فأما الملوك والعظماء فإن ذلك غير مستحسن منهم ولالائق بهم ، لأن الملك إذا أظهر الزهد فقد صار ناقصاً لأن ملكه لا يتم إلا باحتشاد الأموال والأعراض وادخارها ليذبَّ بها عن ملكه ويصون بها حوزته ويفتقد بها رعيته وذلك مضاد للزهد . فإن ترك الادخار بكل ملكه صار معدوداً في جملة النقص من الملوك الحائدين عن طريق السياسة .

[الفصل الثالث]

في وصف الطريقة إلى السمو بالأخلاق

فهذه الأقسام التي ذكرناها هي أخلاق جميع الناس .

أما المحمودة منها المعدودة فضائل فقلما يجتمع كلها في إنسان واحد .

وأما المذموم منها المعدود نقائص ومعايب فقلما يوجد إنسان يخلو من جميعها حتى لايكون فيه خلق مكروه وخاصة من لم يرض نفسه ويؤدبها فإن من لم يتعمل لضبط نفسه ويفتقد عيوبه لم يخل من عيوب كثيرة وإن لم يحس بها ولم يفطن لها وإذا كان الأمر على ماذكرنا كان أولى الأمور بالإنسان إن

يفتقد أخلاقه ويتأمل عيوبه ويجتهد في إصلاحها ونفيها عن نفسه ويتبع الأخلاق الحسنة ويحمل نفسه على اعتيادها والتخلق بها .

فإن الناس إنما يتفاضلون على الحقيقة بفضائلهم لا كما يعتقد الجهال والعامة أنهم يتفاضلون بأحوالهم وأموالهم وكثرة الذخائر والأعراض فإن أكثر الناس إنما يتفاخرون بالذخائر والأموال والآلات ويعظمون أبداً الأغنياء وذوي الأموال ولا يترتب بعضهم على بعض إلا بكثرة الأموال أو الجاه المكتسب بالمال .

وليس كثرة الأموال مما يتفاضل به الناس بل كثرة الأموال إنما تتفاضل بها أحوال الناس .

فأما نفوسهم فليست تكون أفضل من نفوس غيرهم بكثرة الأموال وذلك أن الفاجر السفيه الجاهل الشرير وإن حوى أموالاً عظيمة فليس يكون أفضل من العفيف الحكيم العالم الخيّر وإن كان فقيراً بل إنما يكون بكثرة الأموال أغنى منه .

فأما الفضل فليس يكون أحد أفضل من أحد إلا بكثرة الفضائل فقط فإن اجتمع للإنسان مع الأخلاق الجميلة والعادات المستحسنة الغني والثروة فلعمري إنه يكون أحسن حالاً من الفاضل المعتزّ لأن من سعادات الإنسان أيضاً وخاصةً إذا كان فاضلاً عادلاً عفيفاً أن يصرف ماله في وجوهه وينفقه في حقه ويتفقد به من يجب تفقده ويسعف به أهل المسكنة ولا يقعد عن حق يجب عليه ولامكرمة تزيد في محاسنه .

فأما الناقص الجاهل السيء العادات فإن الغني ربما زاده نقصاً وأضاف إلى معايبه . فإنه لا يعد بخيلاً من لامال له وإن كان البخل في طبيعته فليس يظهر ذلك منه ومالم يظهر منه فليس يعاب به لأن الإنسان إنما يُعاب بما

يظهر منه فإذا كان غنياً ذا مال ويسار ولم يَجِدْ به ظهر بخله فيصير المال جالباً عليه هذا العيب .

وأيضاً فإن أكثر الفجور والمحظورات والشهوات الرديئة ليست تنال إلا بالأموال .

فالفقير وإن كان في شيمته الفجور فليس يكاد يظهر ذلك منه فإذا كان ذا مال تمكن من شهواته فتظهر عيوبهُ .

فقد يكون الغنى مكسباً لصاحبه عيوباً ونقائص .

وقد يكون الفقر مفيداً صاحبه فضائل ومحاسن .

فليس يتفاضل الناس على الحقيقة بالأموال والأعراض ، وإنما يتفاضلون بالآداب والمحاسن الذاتية .

فحقيق بالإنسان أن يسوس نفسه السياسة المستحسنة ، ويسلك بها الطريقة المحبوبة ، فإنه بذلك يكون محبباً إلى الناس ، مقبولاً عندهم ، معظماً في نفوسهم ، مفضلاً (على) غيره ، موقراً عند الرؤساء والملوك ، مقبول القول ، عريض الجاه .

وهذه خير من [١] **الرئاسة** المكتسبة بالأموال ، لأن المال قد تلحقه الجوائح ، فإذا فارق صاحبه ، سقطت منزلته من نفوس الناس ، وساوى العامة والسوقة ، لأنه إذا رأس بالمال ، فالمعظّم له هو ماله لانفسه ، فإذا زال ذلك المال ، لم يبق له شيءٌ يعظم من أجله .

وليس كذلك الفاضل النفس ، المهذب الأخلاق فإن هذا رئاسته

---

(١) في الأصل وهذه هي الرئاسة .

بفضائله ، وفضائله غير مفارقة لـه فهو رئيس مـادام ، ومعظم لـذاتـه لالشيء من الخارج .

ولأن الراغب في سياسـة نفسـه ، المؤثر تهـذيبَ أخلاقـه إذا نُبه على خلق مذموم يجده في نفسه ، وأحب اجتنابه ، ربما صعب عليه الانتقال عنه من أول وهلة ، وربما لم ينل التخلص منه ، ولم يطاوعه طبعه .

وربمـا استحسن أيضـاً خلقـاً محموداً لايجـده لنفسـه ، وآثر التخلـق بـه ولم تستجب له عادته ، ولم يصل إلى مراده ، فوجب أن نرسم للراغبين في السياسة المحمودة طرقاً يتدربون بها ، ويتـدرجون فيهـا ، حتى ينتهوا إلى مرادهم ، من اعتيـاد (١) الأخـلاق الجميلـة ، والانطبـاع بهـا ، وتجنب الأخـلاق القبيحـة ، والتفرغ منها .

فنذكر من أجل ذلك طريق الارتياض بالأخلاق، والتعمل لاعتيادها .

وقد ذكرنـا فيما تقـدم أن سبب اختلاف الأخلاق في النـاس ، هو اختلاف قوى النفس الثلاث فيهم ، وهي الشهوانية والغضبية والناطقة .

وأن صلاح الأخلاق ، هو تذليل الشهوانية منها والغضبيـة ، وتمييز عـادات النفس النـاطقـة ، واستعمال المحمـود من أفعـالها ، وطريـق التـدرج لاستعمال العادات الجميلة ، والعدول عن العادات المستقبحة هو التدرج في تـذليل هـاتين القوتين .

أما النفس الشهوانيـة فـالطريق إلى قمعهـا أن يتـذكر الإنسـان في أوقـات شهواته ، وعند شدة القَرَم إلى لذاته ، أنه يريد تذليل نفسه الشهوانية ، فيعدل عما تاقت نفسه إليه من الشهوة الرديئة ، إلى مـاهو مستحسن من جنس تلـك

(١) في الأصل اجتياد .

الشهوة الرديئة، إلى ما هو مستحسن من جنس تلك الشهوة، ومتفق على ارتضائه فيقتصر عليه ، فإن بذلك الفعل تنكسر شهواته ، ثم يعللها ويعدها ، فإن سكنت وإلا عاود الفعل من الوجه المستحسن ، فإنه إذا فعل ذلك وكرّر فعله كفّت النفس . وإذا استمرت على هذه الحال ألفت النفس هذه العادة ، وأنست بها ، واستوحشت مما سواها .

وينبغي لمن أراد قمع نفسه الشهوانية أن يكثر من مجالسة الزهاد والرهبان والنساك ، وأهل الورع والواعظين ، ويلازم مجالس الرؤساء وأهل العلم فإن الرؤساء (وأهل العلم) ، وخاصة رؤساءَ الدين ، يعظمون من كان معروفاً بالعفة ، ويستزرون من كان فاجراً متهتكاً .

وملازمته لهذه المجالس تضطره إلى التصون والتعفف والتجمل لأولئك لئلا يستزروه ، ويغضوا منه ، ويلحق برتبة من يعظم في المحافل .

وينبغي له أيضاً أن يديم النظر في كتب الأخلاق والسياسة ، وأخبار الزهاد [١] والنساك ، وأهل الورع ، ويجب عليه أن يتجنب مجالس الخلعاء والسفهاء والمتهتكين ومن يكثر الهزلَ واللعب .

الكلام على السُكر

وأكثر ما يجب عليه تجنبه السُكر . فإن السُكر من الشراب يثير نفسه الشهوانية ويقويها ، ويحملها على التهتك ، وارتكاب الفواحش والمجاهرة بها .

وذلك أن الإنسان إنما يرتدع عن القبائح بالعقل والتميز ، فإذا سَكِر عدم ذلك الذي كان يردعه عن الفعل القبيح ، فلا يبالي أن يرتكب كل ما كان

---

(١) في أكثر النسخ الزهاد والرهبان والنساك .

يتجنب في صحوه .

فأولى الأشياء بمن طلب العفة ، هجر الشراب بالجملة [١] ويتجنب مجالس المجاهرين بالشراب والسكر والخلاعة . ولا يظنن أنه إن حضر تلك المجالس واقتصر على اليسير من الشراب لم يستضرّ به . فإن هذا غلط وذلك أن من يحضر مجالس الشراب ليس تنقاد له نفسه إلى القناعة بيسير الشراب ، بل إن حضر مجالس الشرب ، وكان في غاية العفة تاركاً للشرب متمسكاً بالورع ، حملته شهوته على التشبه بأهل المجلس ، وتاقت نفسه إلى التهتك [٢] وما أكثر من فعل ذلك ، وتهتك بعد الستر والصيانة .

فشر [٣] **الأحوال** لمن طلب العفة ، حضورُ مجالس الشراب ، ومخالطة أهلها ، والاستكثار من معاشرتهم .

الكلام عن الغناء

وينبغي لمن أراد قمع نفسه الشهوانية أن يُقل من استماع السماع ، وخاصه النسوان والشابات منهن المتصنعات فإن للسماع قوة عظيمة في إثارة الشهوة ، فإذا انضاف إلى ذلك أن تكون المسمعة مشتهاةً متعملة لاستمالة العيون إليها ، اجتمع على السامع حوادث كثيرة ، فربما لم يستطع دفع جميعها عن نفسه .

---

(١) وفي نسخة ابن عربي بعد الجملة : إن لم يمكنه أن يقتصر فليقتصر على اليسير منه ويكون في الخلوات أو مع من يحتشمه . قلت : الحرام بين والحلال بين ، فما لا يرتكب أمام الناس لا يرتكب في الخلوة .

(٢) في الأصل الفتك وفي نسخة ابن عربي تاقت نفسه إلى الفعل وماهو أكثر من ذلك وتهتك بعد الستر والصيانة .

(٣) في نسخة ابن عربي : فشية أحوال من طلب العفة عدم حضور مجالس الشراب ومخالطة أهلها إلخ .

والأولى لمن همَّ بقهر الشهوة أن يتجنب السماع ، وإن لم يكن منه بدٌّ ولم تستجب نفسه إلى هجره بالكلية ، فليقتصر على استماعه من الرجال ، ومن لامطمع للشهوة فيه . والإقلال [1] منه خير وأصون للمتعفّف .

الكلام على التوسط في الطعام

فأما الطعام فينبغي أن يعلم أن غايته هو الشبع لدفع ألم الجوع وفاخر الطعام ودنيئة جمعياً مشبعان . فليس للمبالغة في تجويد الطعام كبير حظ . والأولى هو التوسط في أنواع المآكل ، وأن يكون من الجنس الذي نشأ عليه الإنسان واعتاده وألفه .

على أن شهوةَ الطعام والنَّهم فيه ،وإن كان من الأخلاق الرديئة فهو أسهلها وأهوانها ، وليس يكسب صاحبها من العار ، مايكسبه محبة الشراب والمباضعة ، ومعاشرة النسوان ، ومصاحبة الأحداث المتهيئين للفواحش ، فإن ذلك في غاية القبح ، وشهوة المآكل أقل قبحاً منه ، وأخف على فاعله . وهو مع ذلك قبيح والاستهتار به وكثرة النهم والشره إليه مكروه ، وطريق التدرج إلى الاقتصاد في الطعام ، هو أن يبادر ذو الشهوة إلى أي شيءٍ وجده من المآكل فإن كان المشتهى الذي تاقت نفسه إليه حلواً ، فإلى أيّ حلاوة وجدها ، وإن كان غير ذلك فإلى ماشابهه في الطعم فإنه إذا تناول من الطعام مايشبه ذلك المشتهى في الطعم ، فإن شهوته تسكن ونفسه تكفُّ .

وينبغي لمن أحب العفة أن يكون أبداً متيقظاً ذاكراً لما يلحق الفاجر والنهم والشره والمتهتك من القباحة والعار [2] ، ويجعل ذلك ديدنه وشعاره ،

---

(١) بل الأولى تركه بالكلية فيجب على المسلم أن يتغنى بالقرآن ويجعله أغنيته انظر رسالتنا « اللهو المباح في ضوء العصر الحديث » ورسالة « أغاني الأفراح الإسلامية » طبعتنا .

(٢) في النسخة البطريركية والعار في الدنيا وشدة العذاب في دار الآخرة ويجعل ذلك ديدنه وشعاره ويداوم على فكر ذلك فإن نفسه ألخ .

فإن نفسه تبغض الشهوات (الرديئة) ، وتشتاق إلى التعفف والقناعة ، وتطرب عند العدول عن الفواحش مع القدرة عليها ، وترتاح لما ينشر عنها ، ويبلغها عن الناس من الثناء الجميل على صاحبها .

فهذا الذي ذكرنا هو طريق إلى رياضة النفس الشهوانية وتذليلها وقمعها ، وهو طريق الارتياض بالعادات المحمودة المرضية ، فيا يتعلق بالشهوات واللذات .

فأما النفس الغضبية فإن طريق قمعها وتذليلها هو أن يصرف الإنسان همته إلى تفقد السفهاء الذين يسرع إليهم الغضب في أوقات طيشهم وحدتهم ، وتسفههم على خصومهم ، وعقوبتهم لخدمهم وعبيدهم ، فإنه يشاهد منهم منظراً شنيعاً يأنف منه الخاصيّ والعاميّ . وأن يتذكر ماشاهد منهم في أوقات غضبه وعند جنايات خدمه وعبيده ، وعند ذنوب إخوانه وأودائه ، في جميع محاوراته ومعاملاته ، فإنه إذا تذكر ماكان استقبحه من السفهاء ، انكسرتْ بذلك سَورة غضبه ، وأحجم عما يهم بالإقدام عليه من السبّ والوثوب ، وإن لم يكف بالكلية قصر ، ولم ينتهِ إلى غاية الفحش .

وينبغي لمن أراد أن يقهر نفسه الغضبية أن يذكر في أوقات غضبه على من يؤذيه ، أو يجني عليه ، أنه لو كان هو الجاني ، ماالذي كان يستحق أن يقابل على جنايته ؟ فإنه بهذا الفعل يعتقد أن درَكَ تلك الجناية ، أو أرش ذلك الأذى ، يسيرٌ جداً ، فإذا اعتقد ذلك كانت مقابلته للجاني والمؤذي بحسب اعتقاده ، فلا يسرف في الانتقام ، ولا يفحش في الغضب . فإذا فعل ذلك دائماً وجعله ديدناً ، وتفقد معايب السفهاء ، ومن يسرع إليه الغضب ، لَم يبعُد أن تنكسر نفسه الغضبية ، وتنقاد له ، فإذا استمر على ذلك مدةً صار خلقاً وعادة .

وينبغي لمن رغب في تذليل نفسه الغضبيـة أن يتجنب حمل السلاح (في مجالس الشراب) وحضور مواضع الحروب ومقامات الفتن و(يتجنب) مجالسة الأشرار ومعاشرة السفهاء ومخالطة الشرط فإن هذه المواضع تكسب القلب قساوة وغلظة وتعدمه الرأفة والرحمة فتقسو لذلك نفسه الغضبية فإذا كان يريد تذليلها وتسكينها وجب أن يجعل مجالسته لأهل العلم وذوي الوقار والشيوخ والرؤساء والأفاضل ومن يقل غضبه ويكثر حلمه ووقاره .

وينبغي لـه أيضـاً أن يتجنب المسكر من الشراب ، فـإن السُكر يهيج النفس الغضبية ، أكثر مما السُكر يهيج الشهوانية ، ولذلك ربما يسرع إلى العربدة ، والوثوب على جلسائه والاستخفاف بهم وسبهم وذكر أعراضهم (بالقبيح) بعد أن كان يتحنن عليهم ويتودد إليهم ولا يكون بين الوقتين إلا بمقدار ما يستحكم به السُكر .

فالسكر مثير القوة الغضبية ومقوّ لها فمن أراد أن يسكن نفسه الغضبية فلا بدّ من أن يتجنب السُكر وإن تمكن من هجر الشراب البتة فهو أصلح لقهر النفس الغضبية والشهوانية جميعاً .

وينبغي لمن أراد تذليل قوتيه الغضبية والشهوانيـة أن يستعمل في جميع ما يفعله الفكر ولا يقدم على شيء إلا بعد أن يروّي فيه ويجعل الفكرة واتباع الرأي ديدناً وعادة فإن الرأي وجودة الفكرة يقبحان له السفه وسرعة الغضب والانهماك في الشهوات واتباع اللذات فإذا استقبح ذلك انحجم عنه وعدل إلى ما يقتضيهِ الرأي والفكر فإن لم يرتدع بالكلية فلابد أن يؤثر ذلك فيهِ فيقتصر عما يريد التسرع إليه .

وملاك الأمر في تهذيب الأخلاق وضبط النفس الشهوانية والنفس الغضبية هي النفس الناطقة فإن بهذه النفس تكون جميع السياسات وهذه النفس إذا

كانت قوية متمكنة من صاحبها أمكنه أن يسوس بها قوتيه الباقيتين ويكف نفسه عن جميع القبائح ويتبع أبداً محاسن الأخلاق وإذا لم تكن هذه النفس قوية في صاحبها فكانت مغمورة خافية فأول ما ينبغي أن يعتمده في سياسة أخلاقه أن يروض هذه النفس ويقويها .

وتقوية هذه النفس إنما تكون بالعلوم العقلية فإنه إذا نظر في العلوم العقلية ودقق النظر فيها ودرس كتب الأخلاق والسياسة وداوم عليها تيقظت نفسه وتنبهت من شهوتها وانتعشت من خمولها وأحست بفضائلها وأنفت من رذائلها وذلك أن هذه إنما تضعف وتخفت إذا عدمت الفضائل والمناقب واستولت عليها الرذائل فإذا أقتنت الفضائل واكتسبت الآداب تيقظت من غشيتها وثارت من سكرها وقويت بعد ضعفها .

وفضائل هذه النفس هي العلوم العقلية وخاصةً مادقّ منها فإذا ارتاض الإنسان بالعلوم العقلية شرفت نفسه وعظمت همته وقوي فكره وتمكن من نفسهِ وملك أخلاقه وقدر على إصلاحها وانقاد له طبعه وسهل عليهِ تهذيبه وأذعنت له القوى الغضبية والشهوانية وهان عليه قمعها وتذليلها .

فأول ماينبغي أن يبدأ بهِ من يحب سياسة أخلاقه النظر في كتب الأخلاق والسياسات ثم الارتياض بعلوم الحقائق فإن أشرف ماتكون النفس إذا أدركت حقائق الأمور وأشرفت على هيئات الموجودات وإذا شرفت نفس الإنسان وعلت همته ترقى إلى مراتب أهل الفضل .

وما يصلح النفسَ الناطقة ويقويها أيضاً مجالسة أهل العلم ومخالطتهم والأقتداءُ بأخلاقهم وعاداتهم وخاصة أصحاب علوم الحقائق والمتيقظون منهم المستعملون في جميع أمورهم ماتقتضيهِ علومهم وتوحية عقولهم .

فأما تمييز عادات النفس الناطقة واستعمال ماحسن فيها واطراح ماقبُح فذلك إنما يمكن ويسهل أيضاً إذا راض نفسه الناطقة فإن النفس الناطقة إذا أرتاضت بالعلوم الحقيقية وتيقظت وتشرفت أنفت من العادات المستقبحة وتنزهت عن التدنس بها فيهون حينئذ على صاحبها تجنب مايكره من عاداتها ويغلب عليه استحسان الأخلاق الجميلة والتخلق بها .

وقد تبين من جميع ماذكرنا أن طريق الارتياض بالأخلاق المحمودة والتصنع لاعتيادها واتباع المحمود المرضي منها واجتناب المذموم والمستقبح وتذليل قوة الشهوة الغضبية وضبطها وقهرها هو إصلاح النفس الناطقة وتقويتها وتحليتها بالفضائل والآداب والمحاسن فإن ذلك هو آلة السياسة ومركب الرياضة .

ومن لم يتمكن من اكتساب العلوم العقلية والإمعان فيها أو تعذَّر عليه ذلك فليبذل جهده في تدقيق الفكر ومجاهدة النفس وتمثيل مابين عادته القبيحة والجميلة وينظر أيها أجدى عليهِ وأيها أنفع له وأيها أحمد عاقبة وأبقى على الأيام .

فإنه إذا صدق نفسه وجد شهواته ولذاته إنما هي ملذة وقت استعمالها فقط فأما بعد مفارقتها فليست باقية عليهِ ولانافعة له ويجد عارها وشَيْنها باقياً على الدهر متداولاً بين الناس يعاب بهِ وُيزرى عليه بقبحه وكذلك شدة الغضب والتسرع إلى الانتقام والسب والفحش فإنهُ إذا انجلت غَمْرته وسكنت سَورْته تأمل أمره ورأى مافعله وجده قبيحاً ولم يجدهُ مجدياً ولامفيداً وقد صار مافعله عند الغضب نقيصة يوسم بها ومعرَّة يسبُّ بها وربما ارتكب في الغضب جنايات يعاقب عليها ويؤدب من أجلها .

وكذلك العادات المكروهة من عادات النفس الناطقة أيضاً تجدها غير نافعة

ولا مجدية وذلك أن الحسد والحقد والخبث وأمثال هذه لاينتفع بها صاحبها وإن انتفع بالخبث والشر فشر منفعة ومع ذلك هو ضار له فإن من تشرر قصده الناس بالشر واستعدّوا لأذيته وتعملوا للإضرار به وتوقّوه واحترزوا منه وكرهوا نفعه وقصروا عليهِ وجوه الخير واجتهدوا في ذلك وماأسوأ حالَ من هذه صفته .

فمستعمل الشر والخبث سّي الحال يضره من شره أكثر مما ينفعه فإذا حاسب الإنسان نفسه وأجاد فكره وتمييزه علم أن الضرر في مساويء الأخلاق أكثر من النفع وأن الذي يعدُّه منها نفعاً فليس هو بنَفع على الحقيقة . هو يسير جداً غير باقٍ ولامستمر فإن هذا اليسير الذي يعده نفعاً لايفي بالضرر الكثير والعار الدائم المتصل .

ويعلم أيضاً أن الشر والخبث يجلبان عليهِ الشر ويوحشان منه الناس فإذا دام ذلك وأكثر منه قوي في نفسهِ اتباع محاسن الأخلاق وسهل عليهِ اطراح مساوئها ومقابحها وغلب عليه الخير والسداد وفزع من العيب والعار . فإذا فعل ذلك دائماً لم يلبث أن يصلح أخلاقه ويحسن طريقته ويهذب شمائله ويلحق برتبة أهل الفضل ويتميز عن أهل الدنس والنقص .

. **وينبغي لمن أراد سياسة أخلاقه** أن يجعل غرضه من كل فضيلة غايتها ونهايتها ولايقنع منها بما دون الغاية ولايرضى إلا بأعلى درجة فإنه إذا جعل ذلك غرضه كان حريّاً أن يتوسط في الفضائل ويبلغ منها رتبة مرضية وإن فاتتهُ الدرجة العالية .

فأما إن قنع بالتوسط لم يأمن أن يقصر عن بلوغهِ فيبقى في أدون المراتب ويفوته المطلوب ولايطمع أبداً في التام .

فهذا الذي ذكرنا هو طريق الارتياض بمكارم الأخلاق ومنهج التدرج في

محمود العادات فإذا أخذ الأنسان نفسهُ بهِ وأكثر بمراعاتِه[١] وتعهده صار له من الفضائل ديدناً والمحاسن له خلقاً وطبعاً .

[الفصل الرابع]

في وصف الإنسان الجامع لمحاسن الأخلاق

وقد بقي علينا أن نذكر أوصاف الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق وطريقته التي يصل بها إلى التام فنقول :

الإنسان التام هو الذي لم تفته فضيلة ولم تشِنه رذيلة وهذا الحد قل ماينتهي إليهِ إنسان فإذا انتهى الإنسان إلى هذا الحد كان بالملائكة أشبه منه الناس . فإن الإنسان مضروب بأنواع النقص مستولىً عليهِ وعلى طبعهِ ضروب الشر فقلَّ مايخلص من جميعها حتى يسلم نفسه من كل عيب ومنقصة وتحيط بكل فضيلة ومنقبة .

إلا أن التام وإن كان عزيزاً بعيد التناول فإنه ممكن وهو غاية ماينتهي إليهِ الإنسان ونهاية ماهو منتهى له وإذا صدقت عزيمة الإنسان وأعطى الاجتهاد حقه كان قميناً بأن ينتهي إلى غايته التي هو متهيء لها ويصل إلى بغيته التي تسمو نفسه إليها .

[أوصاف الإنسان الجامع لمحاسن الأخلاق]

١ - [التفقد لجميع معايبه]

فأما تفصيل أوصاف الإنسان التام فهو أن يكون متفقداً لجميع أخلاقه متيقظاً لجميع معايبه متحرزاً من دخول نقص عليه مستعملاً لكل فضيلة

(١) كذا في الأصل ولعله (أكثر مراعاته أو أكثر الارتياض بمراعاته) .

ومجتهداً في بلوغ الغاية عاشقاً لصورة الكمال مستلذاً لمحاسن الأخلاق متيقظاً في الأصل متبغضاً لمذموم العادات معنياً بتهذيب نفسه غير مستكثر لما يقتنيه من الفضائل مستعظماً اليسير من الرذائل مستصغراً للرتبة العليا مستحقراً للغاية القصوى يرى التمام دون محله والكمال أقل أوصافه .

٢ - [القراءة - والإحاطة]

فأما الطريقة التي توصله إلى التمام وتحفظ عليه الكمال فهي أن يصرف غايته إلى النظر في العلوم الحقيقية ويجعل غرضه الإحاطة بماهيات الأمور الموجودة وكشف عللها وأسبابها وتفقد غاياتها ونهاياتها ولا يقف عند غاية من علمه إلا ورنا بطرفه إلى مافوق تلك الغاية ويجعل شعاره ليله ونهاره قراءة كتب الأخلاق وتصفح كتب السير والسياسات وأخذ نفسه باستعمال ماأمر أهل الفضل باستعماله وأشار المتقدمون من الحكماء باعتياده ويشدو ايضاً طرفاً من أدب اللسان والبلاغة ويتحلى بشيء من الفصاحة والخطابة ويغشى أبداً مجالس أهل العلم والحكمة ويعاشر دائماً أهل الوقار والعفة .

هذا إن كان رعية وسوقة فإن كان ملكاً أو رئيساً فينبغي أن يجعل جلساءه ومنادميه وغاشيته والمطيفين به كل من كان معروفاً بالسرو[١] والسداد موصوفاً بالأدب والوقار مخصصاً بالعلم والحكمة متحققاً بالفهم والفطنة ويقرّب مجالس أهل العلم ويبسطهم ويكثر مجالستهم والأنس بهم ويجعل تفرجه وتفكهه مذاكرتهم في العلم وفنونه وسياسة الملك ورسومه وأخبار الحكماء وأخلاقهم وسير الملوك الأخيار وعاداتهم .

---

(١) في الأصل بالسر . والسرو المروءة والشرف .

٣ ـ [الاقتصار في الشهوات]

وينبغي للإنسان التام ولمن طلب التام أيضاً أن يجعل لشهواته ولذاته قانوناً راتباً يقصد فيه الاعتدال ويجتنب السرف والإفراط ويعتمد من الشهوات واللذات المعتدلة ماكان من الوجوه المرتضاة المستحسنة ويأخذ نفسه بذلك ويحظر عليها الطمع في لذة مكروهة أو شهوة مسرفة ويهجر أصحاب اللذات ومعاشرتهم وينقبض عن الخُلعاء ومخالطتهم ويُشعر نفسه أن الشهوة عدو مكاشح وخصم مكافح يريد أبداً ضرره وأذيته ويعتمد شينه وفضيحته فيناصب شهوته بالعداوة ويكاشفها بالمعاندة ويقمع أبداً سورتها ويكسر أبداً حدَّتها ويقهر دائماً سطوتها ويذلّل علىالتدرج عزها ويسكّن على الترتيب فورها فإنه إذا فعل ذلك كان خليقاً أن يملك نفسه وتنقاد له شهوته وينطبع بالعفة ويألف حسن السيرة .

ومتى أرخى لشهوته عنانها وسمح لها في مرادها وأهمل سياستها ومراعاتها استطالت وشمخت ولم تلبث أن توهن صاحبها وتقوده وتحمله على مايسوءه ويغره فيصير بذلك بعيداً من التام غير طامع في الكمال .

٤ ـ [مفارقة الشهوات الردئية وهجر اللذات الدنيئة]

وينبغي لمن يطلب التام أن يعلم أنه لاسبيل له إلى بلوغ غرضه مادامت اللذة عنده مستحسنة والشهوة مستحبة وهذه الحال صعبة جداً متعسرة على طالبها بعيدة المأخذ وهي على الملوك والرؤساء أصعب وأبعد لأن الملوك والرؤساءَ أقدر على اللذات وأشد على تمكن الشهوات .

واللذات لديهم معرّضة ولهم سجية وعادة فمفارقتها عليهم متعذرة وإعراضهم عنها كالشيء الممتنع خاصة لمن قد نشأ على الانهاك فيها والتوفر عليها إلا أن الملوك وإن كانوا أقدر على اللذات وأكثر اعتياداً لها فهم أعظم همّاً

وأعز نفوساً والمحصل منهم إذا سمت نفسه إلى التام الإنساني واشتاقت إلى الرئاسة الحقيقية علم أن الملك أحق أن يكون أتمّ أهل زمانه وأفضل من أعوانه ورعيته فيهون عليه مفارقة الشهوات الرديئة وهجر اللذات الدنيئة .

٥ ـ [التعود على الكرم]

وينبغي لمن رغب في سياسة أخلاقه وسلك طريق الاعتدال في شهواته أن يجعل له قانوناً يقتصر عليه في المآكل والمشارب معروفاً بالكرم وهو أن لا يستبد [١] بالمأكل والمشرب وحده بل يقصد أن يشرك في مأكله من ذلك إخوانه وأوداءه إن رعية أو سوقة وإن كان ملكاً أو رئيساً فيجمع عليه غاشيته وندماءه ويعم به أصحابه وأعوانه ويتفقد بفضلاته أهل الفقر والمسكنة وخاصة من سبقت له معرفة أو تقدمت له حرمة ويصرف إلى ذلك حظاً من عنايته فإن اعتداد هؤلاء بما يصل إليهم مدبره أكثر من اعتداد حاشيته وأصحابه وليظهر لمن يجتمع على مائدته وعلى طعامه وشرابه من إخوانه وأصدقائه ورعيته وندمائه ـ إن كان ملكاً أو رئيساً ـ أن جمعه لهم للأنس بهم والسرور بمعاشرتهم لا ليكرمهم بطعامه وشرابه ولاأن لذلك قدراً يعتدُّ به وليحترز كل الاحتراز من أن يبدو منه امتنان بالطعام والشراب أو تبجُّح [٢] به فإن ذلك يزري بفاعله ويغض منه ويوحش من يغشاه ويقطعهم عنه .

وقد يستحسن من الإنسان أيضاً إذا كان مقلاً أن يواسي بطعامه إخوانه وإن كان محتاجاً إليه ويستحسن منه أيضاً أن يواسي به الفقراء والضعفاء وقد يستحسن أيضاً أكثر من ذلك أن يؤثر الإنسان بطعامه وشرابه غيره وإن كان شديد الاضطرار إليه وكان لا يقدر على غيره .

---

(١) في الأصل يستبدل .

(٢) في الأصل أو يبيح به .

٦ - [الزهد في المال]

وينبغي لمن طلب السياسة التامة أن يستهين بالمال ويحتقره وينظر إليه بالعين التي يستحقها فإن المال إنما يراد لغيره وليس هو مطلوباً لذاته فإنه في نفسه غير نافع وإنما الانتفاع بالأغراض [١] التي تنال به فالمال آلة تنال بها الأغراض فلا يجب أن يعتقد أن اقتناءه وادخاره مفيد فأنه إذا ادخر وحرس لم ينل صاحبه شيئاً من الأعراض التي هو بالحقيقة محتاج إليها فالمال مطلوب لغيره .

٧ - [حسن التصرف في المال]

فينبغي للسديد الرأي العالي الهمة أن يزنه بوزنه فيكسبه من وجهه ويفرقه في وجوهه ويكون مع ذلك غير متوانٍ في اكتسابه ولامقتّر [٢] في طلبه لأن عدم المال يضطره إلى التواضع لمن هو دونه إذا وجد عنده حاجته ووجود المال يغنيه عمن هو فوقه وإن دنت منزلته ويكون أيضاً غير مدّخر ولامتمسك بُه ويقصد الاعتدال في تفريقه ويحذر من السرف والتبذير في تخريجه ولايمنع حقاً يجب عليه ولايصرفهُ في شيءٍ لايجب ولايشكر عليه وإذا فرغ من حاجاته واستكفى من نفقاته وسد جميع خللهِ عاد إلى النظر في أمره فإن كان بقي من ماله بقية فاضلة عن مهمّ أغراضه أخرج منها قسطاً فجعلهُ عدة ليستظهر بها لشدة . ويعدها لنائبة . ثم عمد إلى الباقي ففرقه في ذوي الحاجة من أهله وأقاربه وإخوانه وأهل مودته وجعل فيه قسطاً للضعفاء والمساكين وأهل الفاقة المستورين ويجعل اهتمامه بإفضاله وبره أكثر من اهتمامه بضرورياته فإن الضروريات تقوده كرهاً إليها والبر والنوافل متى لم يهتم بها ويشعر نفسه

---

(١) في الأصل الأعراض .

(٢) لعله مقصر .

التزامها لم يسهل عليه فعلها لأن ضعف النفس وسوءَ الظن يصرفانه عنهـا وإن لم يكن له جاذب من نفسه وداعٍ قوي من همته لم يقدم عليهـا وغلب عليـه [١] التواني فإذا توانى عن البر والتفضل كان شحيحاً ضنينـاً بخيلاً دنيًّـا وليس بتـام بل ليس بالحقيقة إنساناً من لم يكن له برّ يُعرف ولم تنشر عنـه أفعـال توصف هذا إن كان من أوساط الناس .

فأما الملوك والرؤساء فإنهم أحق بهذه السياسة ، ويجب أن يكونوا بـذلـك أشـد عنـايـة ، فيجبوا الأموال من حقهـا وواجبـاتهـا [٢] ، ويصرفـوا منهـا في نفقاتهم ومؤونـاتهم ، وأرزاق جنـدهم وأصحـابهم ، قـدر الكفـايـة من غير سرف ولاتقتير ، ويعدوا منه شطراً لخوف عاقبة ، ويصرفوا [٣] الباقي في طرق الكرم والجود ، ووجـوه الخير والبر ، فيعطـوا أهـل العلم على طبقـاتهم ، ويجعلـوا لهم رواتب من خواص أموالهم ، ويدفعوا لمن هو مشـابر على العلم والأدب ، ويبروا الضعفاء والمساكين ، ويتفقدوا الغربـاء (والمنقطعين) ، ويهتموا بـالزهـاد وأهل النسك، ويخصوهم بقسط من إفضالهم وإنعامهم ، ويعنوا بـالصغير والكبير من رعيتهم ، وينفقوا في مصالحهم شطراً من أموالهم . فإن الملوك أولى بـالكرم من الرعية وأحق بالجود من العامة .

وقد يستحسن أيضاً من المقلين والمقترين ، المؤَاسـاة بـالمـال والإيثـار بـه ، وإن كانوا محتاجين إليه وكلما كانت حاجاتهم أشد كان ذلك الفعل أحسن [٤] .

وهـذه الحـال تستحسن إذا رأى الرجل أخـاً من إخـوانـه ، أو صـديقـاً من أصدقائه (يختص بهِ) قد دعته الحاجة إلى مـالا يقـدر عليـه لإصلاح شيء من شأنه ، أو لدفع محنـة نزلت بـه ، وكان هو قـادراً على ذلـك القـدر من المـال ،

---

(١) في الأصل عليها .

(٢) في نسخة : ووجهها .

(٣) في الأصل : ويصرف .

(٤) في نسخة : الفعل حسناً منهم .

فيبتديء (حينئذ) بإسعافه عفواً من غير مسألة وإن فعل هذا الفعل مع الغريب الذي لايعرفه ، ولم تسبق له حرمة ولامودة ، كان جميلاً مستحسناً .

٨ - [ترك الغضب]

وينبغي لمحب الكمال أن يشعر نفسه أن الغضبان بمنزلة البهائم والسباع ، يفعل مايفعله من غير علم ولاروية . فإذا جرى بينه وبين غيره محاورة أدت إلى أن يغضب خصمه ، ويسفهه عليه ، اعتقد فيه أنه في تلك الحال بمنزلة البهائم والسباع ، فيمسك عن مقابلته ، ويحجم عن الاقتصاص منه ، ألا يعلم أن الكلب لو نبح عليه لم يكن يستجيز مقابلته على نبحه ، وكذلك البهيمة لو رمحته لم تستحسن عقوبتها ، لأنها غير عالمة بما تصنعه ، إلا أن يكون جاهلاً سفيهاً فإن من السفهاء من يغضب على البهيمة إذا رمحته ، ويوجعها ضرباً إذا آذته ، وربما عثر السفيه فشتم موضع عثرته ورفسها برجله .

فأما الحليم الوقور فلا يستحسن شيئاً من ذلك ، وإذا استشعر من خصمه أنه بمنزلة البهائم (حال الغضب) صار هذا الاستشعار منه طريقاً إلى ضبط النفس الغضبية وزمّها ، فإن آذاه موذٍ بغير سفه (فيؤدي ذلك الأذى إلى حال تغضبه ، أنف أيضاً من الغضب مع استشعاره أن الغضبان والبهيمة سواء ، فيعدل حينئذٍ إلى مقابلة مؤذيه بما يقتضيه الرأي (السليم) من حيث لايظهر فيه غضب ولاسفه .

٩ - [محبة الناس والتودد إليهم]

وينبغي لمحب الكمال أيضاً أن يعود نفسه محبة الناس أجمع ، والتودد إليهم ، والتحنن عليهم ، والرأفة والرحمة لهم ، فإن الناس قبيل واحد متناسبون تجمعهم الإنسانية وحلية [١] القوة الإلهية هي في جميعهم وفي كل واحد منهم

---

(١) في الأصل تحلية .

وهي النفس العاقلة . وبهذه النفس صار الإنسان إنساناً ، وهي أشرف جزئي الإنسان اللذين هما النفس والجسد ، فالإنسان بالحقيقة هو النفس العاقلة ، وهي جوهر واحد في جميع الناس ، والناس كلهم بالحقيقة شيء واحد ، وبالأشخاص كثيرون .

وإذا كانت نفوسهم واحدة ، والمودة إنما تكون بالنفس ، فواجب أن يكونوا كلهم متحابين متوادين ، وذلك في الناس طبيعة ، لو لم تقدهم النفس الغضبية فإن هذه النفس تحبب لصاحبها الترؤس فتقوده إلى الكبر والإعجاب ، والتسلط على المستضعف ، واستصغار الفقير ، وحسد الغني ، وبغض ذوي الفضل ، فتسبَّب [١] من أجل هذه الأسباب العداوات ، وتتأكد البغضاء بينهم .

فإذا ضبط الإنسان نفسه الغضبية ، وانقاد لنفسه العاقلة ، صار الناس كلهم له إخواناً وأحباباً ، وإذا أعمل الإنسان فكره رأى أن ذلك واجب لأن الناس إما أن يكونوا فضلاء أو نقصاء ، فالفضلاء يجب عليه محبتهم لموضع فضلهم ، والنقصاءُ يجب عليه رحمتهم لأجل نقصهم .

فيحق [٢] لمحب الكمال أن يكون محباً لجميع الناس ، متحنناً عليهم ، رؤوفاً بهم ، وخاصة الملك والرئيس ، فإن الملك ليس يكون ملكاً ما لم يكن محباً لرعيته رؤوفاً بهم ، وذلك أن الملك ورعيته بمنزلة رب الدار وأهل داره ، وما أقبح رب الدار أن يبغض أهل داره ، ولا يتحنن عليهم ، ولا يحب مصالحهم .

---

(١) في نسخة : فتنشأ .

(٢) في نسخة : فيحق يجب لمحب الكمال .

١٠ - [حب الخير وإلفه]

وينبغي لمحب الكمال أن يجعل همته فعل الخير مع جميع الناس وإنفاق مايفضل من ماله فيما يبقي له الذكر الجميل بعد موته ، ويتحرز من فعل الشر فإنه إذا حاسب نفسه ، علم أن من يفعل الشر إنما يفعله لخير يعتقد أنه يصل إليه بذلك الشر وربما كان غلطاً وربما كان مصيباً . وإذا علم أن الأمر على هذه الصفة ، كان واجباً أن يطلب الخير الذي يرومه من طريق غير طريق التشرر [١] ، إذا كان هو الغرض المطلوب لافعل الشر .

فأما إن كان تشرره لشفاء غيظ يلحقه ، فليعلم أنه إذا سكن غيظه وجد ذلك المقصود بالشر غير مستحق لذلك الفعل ، ففعل الشر قبيح ، وخاصة بمن قد جمع [٢] الفضائل ، إلا أن يكون ذلك الشر تأديبًا على جرم ، أو اقتصاصاً من جان ، فإن هذه الحال مستحبة محمودة ، بل لاتعد شراً لأن ذلك الشر إنما يصل إلى الجاني فقط ، ويكون منه نفع عام لجميع الناس بأن يرتدع به أمثاله من الجناة، فتكون المنفعه فيه أكثر ، فمن أجل ذلك لا يعد شريراً [٣] .

وإذا اعتمد الإنسان فعل الخير وألفه ، وتجنب الشر واستوحش منه ، أنف من الأخلاق المكروهة التي تعد شراً ، كالحسد ، والحقد ، والخبث ، والخديعة ، والنميمة ، والغيبة ، والوقيعة ، وأمثال هذه العادات . وإذا فكر العاقل المحصل فيها ، علم أنها غير مجدية عليه نفعاً ، وهي مع ذلك تشينه وتقبح سيرته ، وإذا كان محباً للتمام ، مستشرفاً للكمال ، كان واجباً عليه تجنب هذه الأخلاق (المذمومة) .

---

(١) تشرر تكلف الشرّ .

(٢) خ : جمع بين الفضائل والعلم .

(٣) خ : شراً .

١١ - [ترك القبيح من الأعمال ظاهراً وباطناً]

وينبغي لمحب الكمال أن يعتقد أنه ليس شيء من العيوب والقبائح خافياً عن الناس ، وإن اجتهد صاحبها في سترها ، فلا تطمع نفسه في ارتكاب فعل قبيح يظن أنه ينكتم عن الناس حتى لا يقف عليه أحد .

ويجب أن يعلم أن الناس بالطبع موكلون بتتبع عيوب الناس وتعييرهم بها ، وذلك في الناس غريزة ، والسبب فيه أن الإنسان مالم يبلغ التمام ، فليس يخلو من تقصير يعاب به ، ويسوءه أن يكون غيره أفضل منه ، فهو يسر أن تكون الناس كلهم نقصاءَ ليساووه في النقص فهو أبداً يتبع معايب الناس ويعيرهم بها ليري الناس أنه أفضل ممن فيه ذلك العيب ، ويشعر نفسه أيضاً ذلك لتطيب بما فيها من العيب ، فليس شيءٌ من العيوب بخاف عن الناس وإن اعتمد ستره .

وقد يظن كثير من الملوك والرؤساء أن عيوبهم مستورة عن الناس غير بادية ، وذلك لموضع هيبتهم ، وعظم سطوتهم ، ويستشعرون أن حاشيتهم وخواصهم لايجسرون على إظهار أسرارهم ، إن وقفوا على شيءٍ منها . وهذا نهاية الغلط لأن خواص الملك وحاشيته كما أنهم عنده ثقات أمناء ، كذلك لكل واحد منهم خاص وثقة يخرج إليه بأسراره ، والذي لا يستر أسرار نفسه فمحال أن يستر عنه أسرارهُ غيره .

وهذه الحال طريقة إلى انتشار معايب الملوك الذين يظنون أنها مستورة ، والعلة في ظنهم أن عيوبهم مستورة ، هو أنهم لايسمعون أحداً يذكرها ، ولاأحداً يتنصح إليهم بها ، فيظنون أنها خفية . فإذا أحب الإنسان أن يعلم أن عيوبه غير خافية ، فليعد إلى نفسه فينظر هل يعرف لأحد عيباً كان يستره ويخفيه ، فإنه يجد للناس عنده عيوباً كثيرة قد اجتهدوا في سترها ، وحرصوا

على صونها . ومنهم من يظن أنها خفية . ومنهم من يعلم أنها قد انتشرت بعد الستر فإذا علم أنه عارف بأسرار كثير من الناس كانت مستورة فالواجب أن يعتقد أن عيبه غير خاف ولامنكتم وأن الناس يعرفون من عيوبه أكثر مما يعرف هو من عيوبهم .

١٢ - [اجتناب العيوب بالكلية]

فينبغي لمن أحب الكمال أن يعتقد أن عيوبه ظاهرة وإن اجتهد في إخفائها وليس بتام من عُرف له عيب ولاطريق إلى التمام إلا باجتناب العيوب بالكلية والتمسك بالفضائل في سائر الأمور وهذه الرتبة غاية تمام الإنسانية ونهاية الفضيلة البشرية وواجب على كل إنسان الاجتهاد في بلوغها واستفراغ الوسع في الوصول إليها لأن التمام مطلوب لذاته والنقص مكروه لعينه .

وأحق الناس بطلب هذه المرتبة وأولاهم بالتحمل [١] لبلوغ هذه المنزلة الملوك والرؤساء لأن الملوك والرؤساء أشرف الناس وأعظمهم قدراً ومأقبح بالشريف العظيم القدر أن يكون ناقصاً فالملوك إذاً ينبغي أن يكونوا أشد الناس حرصاً على بلوغ الكمال لأن الكامل من الناس الجامع للفضائل متوثب [٢] بالطبع على الناقص من الناس فالإنسان التام رئيس بالطبع (و) إذا كان الملك تاماً جامعاً لمحاسن الأخلاق محيطاً بجميع المناقب كان ملكاً بالطبع وإذا كان ناقصاً كان ملكاً بالقهر ومأولى بالملك أن يرغب في الرئاسة الحقيقية لا بالتي تكون بالقهر وبالشرف الذاتي لا ما هو بالوضع . فالواجب أن يصرف الملك همته إلى اكتساب الفضائل واقتناء المحاسن ويطلب الغاية من المكارم ويستصغر الكبير منها حتى يحوز جميعها ولا يرضى بالنهاية حتى يزيد

---

(١) خ : التجمل .

(٢) خ : مترتب .

عليها فإنه إن رضي برتبة فوقها رتبة لم يصر أبداً إلى التام وإن أبعد الناس من التام من رضي لنفسه بالنقصان فإذا طلب الملك الكمال فأول مايجب أن يعتاده عظم الهمة فإن عظم الهمة تصغر[1] في عينه كل رذيلة وتحسن له كل فضيلة .

وإذا عظمت همة الملك سلم من الإعجاب بملكه ورأى نفسه وهمته أعظم قدراً من أن يستكثر ذلك الملك وإذا احتقر الملك ملكه الذي به عزه وعظمته طلب لنفسه مايعظمها بالحقيقة وليس تعظم النفس إلا بالفضائل .

١٣ - [كُره التملق]

ثم ينبغي له أن يكره الملَق ويبغض المتملقين وينهاهم عن تلقيه به وملاك أمره أن يتعرف عيوبه حتى يمكنه توقيها والتحرز منها وهو أبداً في الملوك صعب لأن الإنسان بالطبع يخفى عليه كثير من عيوبه فالذي يخفى على الملوك أكثر لإعجابهم بمحاسنهم وعظم مرتبتهم .

وأيضاً فإن الرعية والسوقة يبكتون بعيوبهم ويعيرون بها فهم يعرفونها والملوك لايجسر أحد على تبكيتهم ولايقدم أحد على نصحهم وتبكيتهم على عيوبهم لأن الناس أجمع يقصدون التقرب إلى الملوك وتملقهم فلا يقولون لهم إلا مايحبون لينالوا الحظوة عندهم . فعيوب الملوك أبداً خفية عنهم .

وينبغي للملك إذا أحب أن يتنزه من العيوب ويتطهر من دنسها أن يتقدم إلى خواصه وثقاته ومن كان يسكن إلى عقله وفطنته من خدمه وحاشيته فيأمرهم أن يتفقدوا عيوبه ونقائصه ويطلعوه عليها ويعلموه بها .

وينبغي له أن يتلقى من يهدي إليه شيئاً من عيوبه بالبشر والقبول ويظهر له الفرح والسرور بما أطلعه عليه بل المستحسن منه أن يجيز الذي

---

(١) خ : تشنع .

يوقفه على عيوبه أكثر مما يجيز المادح على المدح والثناء الجميل ويشكر من ينبهه على نقصه ويتحمل لومته بفعله فإنه إذا لزم هذه الطريقة وعُرف بها يسرع أصحابه وخواصه إلى تنبيهه على عيوبه وإذا نبه على مافيه من النقص أُنف منه واستشعر أن أولئك سيعيرونه به ويصغرونه من أجله فيلزمه حينئذ أن يأخذ نفسه بالتنزه من العيوب ويقهرها على التخلص من دنسها .

فإذا فعل ذلك وتوفر على اقتناء الفضائل وألزم نفسه التخلق بالمحاسن ولم يرضَ من منقبة إلا بغايتها ولم يقف عند فضيلة إلا وطلب الزيادة عليها واجتهد فيما يحسن سياسة نفسه عاجلاً ويبقي له الذكر الجميل آجلاً لم يلبث أن يبلغ الغاية من التمام ويرتقي إلى النهاية من الكمال فيحوز السعادة الإنسانية والرئاسة الحقيقية ويبقى له حسن الثناء مؤَبداً وجميل الذكر مخلداً .

فقد أتينا على صفة الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق والطريقة التي تؤديه إلى هذه الرتبة وتحفظ عليه هذه المنزلة .

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٠١١ / ٨٩

مطابع الوفاء ـ المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠
تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN







يصدر قريباً إن شاء الله :

الجلد عند

فقد الولد

للحافظ

جلال الدين السيوطي

مسند المقلين

من

الأمراء والسلاطين

لأبي القاسم تمام بن محمد الدمشقي

الدر المنضود في

ذم البخل ومدح الجود

للحافظ

عبد الرؤوف المناوي

تحفة الزوار إلى

قبر النبي المختار

لابن حجر الهيثمي

دار الصحابة للتراث بطنطا

للنشر والتحقيق والتوزيع

ت : ٣٣١٥٨٧ - ص . ب : ٤٧٧